الأدَبُ

المقَارَنْ

١

المكتبة الجامعية

الأدب المقارن والأدب العام

تأليف

ريمون طحان

دكتور دولة في الآداب من جامعة باريس
أستاذ الأدب المقارن في كلية التربية
الجامعة اللبنانية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

الطبعة الاولى ١٩٧٢

الأدب المقارن

تحديد مصطلحه : تعريف الأدب المقارن ؛ عامل الانفتاح والانطواء ؛ إنسانية الدراسات المقارنة ؛ الأدب المقارن والدراسات الجامعية .

لمحة تاريخية : التيارات المؤثرة والمتأثرة المباشرة، المحورة ، العكسية ؛ محاولة تحليل التفاعل الذي حدث في معظم آداب الغرب ؛ نشوء وارتقاء الأدب المقارن وظهوره كعلم موضوعي : أئمة الحركة المقارنة ؛ مدى انتشار تلك الحركة .

عُدّة المقارن : الثقافة التاريخية ؛ الاطلاع على الآداب الأجنبية ؛ مشكلة اللغات ودور معرفتها في الأدب الجميل والدراسات المقارنة المتخصصة ؛ التحري عن المعلومات في مظانّها ؛ شخصية المقارن الفذّة .

حقل اختصاصه : ما أقحم في حقل الأدب المقارن ؛ ما هو منه ؛ حقل اختصاص المدرسة الفرنسية ؛ النزعة العالمية الكوزموبوليتية .

الكتب والمطبوعات : الروائع الأدبية ؛ كتب النقد والمجلات والصحف ؛ كتب الرحلة ؛ حركة النقل ، المفردات الدخيلة قرائن صالحة لدراسة طابع الحضارة الكوزموبوليتي .

رجال الأدب : الدعوة إلى كوزموبوليتية الأدب؛ دور الوسطاء ؛ دور الندوات ؛ دور النقلة والمترجمين .

التأثر والتأثير :

ا ــ الكاتب أو الشاعر وأدب غير قومه : أثر الأدباء خارج قطرهم ؛ تأثير الأدباء الأجانب في قطر معين ؛ التأثر والتأثير كجملة عصبية واحدة .

ب ــ قطر أو بلد في أدب غيره من البلدان : صورة قطر في الأدب القومي ؛ صورة قوم في الأدب الأجنبي ؛ بعض التحفظات .

ج ــ الأجناس أو الفنون الأدبية : برونتيير Brunetière ونظريته في تطور الأجناس ؛ العلاقات التاريخية والفنية والعلمية ؛ منهجية هذا النوع من الدراسات ؛ أجناس أم تقنيات ؟

د ــ الأبطال والنماذج البشرية : مصدرهم ؛ التاريخ الاسطوري والخرافي ؛ التوراة والكتب المقدسة ؛ التقاليد القومية ؛ التاريخ القديم والحديث ؛ الحياة اليومية .

هـ ــ التيارات الفكرية : صعوبة دراستها على صعيدي الأعلام والحركات ، العلاقات الثنائية .

خاتمة : التزام منهجية صارمة ؛ حقول الأدب المقارن التقليدية ؛ إنفتاح آفاق جديدة .

الأدب العام

مصطلحه : لمحة تاريخية ؛ مؤتمرات وندوات ومناقشات ، الأدب العام والأدب القومي ؛ الأدب العام والأدب المقارن ؛ الأدب العام صرح الفكر البشري الخلاّق والمبدع .

حقل اختصاصه(١) : حقول الأدب العام المنسلخة عن الأدب المقارن : ظاهرة التأثر والتأثير كحدث عام ، الفنون الأدبية والأجناس والأشكال والمواضيع كحدث أدبي صرف .

(٢) ميدان اختصاص الأدب العام منذ نشأته : حقل تاريخ الأدب العام ؛ فلسفة الأدب العام ، الأدب العام والفنون الجميلة .

النصوص

منهجية تحليل نصوص الأدب المقارن والأدب العام : نواميس المقارنة؛ طبيعة النصوص؛ النصوص الجمالية القصيرة : تحليلها شفهياً وتحليلها تحريرياً أو كتابياً ، النصوص الإعلامية الطويلة ودورها في كتابة تاريخ الأدب العام .

خاتمة

الأدب المقارن

تحديد مصطلحه (١)

تهتم الدراسات المقارنة بالعلاقات التي تقوم بين أدب وطني معين كتب بلغة قومية معينة وبين أدب اوآداب غريبة عن تلك اللغة القومية . وتهتم أيضا الدراسات المقارنة بالصلات التي تقوم بين أدباء وكتّاب وشعراء يتشابهون في انتاجهم الأدبي ولكنهم يتباينون في اللغة والحضارة وينتمون إلى اعراق وقوميات قد تفصل بينها حدود جغرافية وسياسية .

تنتقل التيارات الأدبية والفكرية من بلد إلى آخر رغم الحواجز اللغوية والحدود السياسية وتجتاح بلداناً متجاورة أو

---

(١) هل أحسن ائمة الأدب المقارن اختيار اسم علمهم ؟ إن كلمة أدب تعني الابداع والخلق الفني وهم حين يقارنون لا يقومون إلا بدراسات أدبية والدراسات هي نوع من النقد ومن الأفضل أن يسمى علمنا هذا دراسات في الأدب المقارن او بالأحرى دراسات في الآداب المقارنة فالمقارنون يوازنون بين أديبين على الأقل ويقابلون بين أدبين عادة ولكن الأمر أفلت من يد أرباب الأدب المقارن واصطلح معظم الناس على تسمية هذا النوع من الدراسات «أدب مقارن» إما بفتح الراء (ويكون الاصطلاح منقولا عن اللغة الفرنسية (Littérature comparée) وإما بكسر الراء (ويكون الاصطلاح منقولا عن لغة بعض المقارنين الفرنسين وعن اللغة الانكلزية (comparative).

بعيدة لتجعل من عالمنا الضيّق كتلة واحدة ويخضع الأدب لهذه التيارات . إذا انطوى الأدب القومي أو الوطني على نفسه ذبل وأصيب بالوهن وحل فيه السقم والضعف ولذا نراه يرتوي من المناهل الغريبة عنه ويتمثل بعض ما تقدمه له ونقول : ان اروع الآثار الأدبية القومية تعتمد دوماً على الموارد الأجنبية والغريبة (١) .

إن كل إنتاج جديد بأن تطلق عليه تسمية أدب يبلغ حد الكمال والتمام بالأخذ والعطاء والانفتاح لا بالانكماش والانطواء وتنطبق هذه الحقيقة على الأدب العربي وعلى كافة آداب الأمم والشعوب فتتجلى عملية التأثير والتأثر كحركة ذات حدين تعمل دائبة ونشيطة وفعّالة .

لأدبنا العربي تأثيراته وتأثراته فقد أفاد من الأدب اليوناني والفارسي والهندي عندما خرج العرب من جزيرتهم أثر الدعوة والفتح واختطلوا بشعوب ذات مدنيات تختلف عما الفوه ، وذات حضارات متقادمة العهد وكانت تلك الشعوب تنحدر من اعراق غريبة عنهم حامية وآرية لها عقليات ونزعات متباينة فتلقح العقل العربي بتراث ثقافي ضخم وتوسعت آفاقه وعرف

---

(١) يشبه الأدب القومي ، الذي يتمثل العناصر الغريبة عنه ، الأسد الذي يفترس الحملان ويحولها الى عناصر قوة ونشاط وقد استعمل هذا التشبيه لأول مرة الشاعر الفرنسي (Paul Valéry) .

العرب اللغة الفارسية واليونانية وتسرب الفقه الروماني والحكمة الاغريقية وأساليب الفرس واليونان الانشائية إلى لغة العرب وإلى اساليبهم الكتابية . ولا يضير العرب أنهم أخذوا فَهُمْ بدورهم اعطوا ونقلوا إلى الغرب اكثر معارف الحضارات القديمة وعلومها وأمدوا الآداب الاوروبية في العصور الوسطى بالمواضيع الأدبية وغذوها بشعرهم وغزلهم وقصصهم . . .

وللآداب العالمية تأثيراتها وتأثراتها أيضاً فقد ظهرت أولى النهضات الأدبية في صورتها البدائيـــة عندما اتصل الادب اللاتيني بالأدب اليوناني ثم تبلورت حركة الانبعاث في عصر النهضة وواكبتها نزعة انسانية مشرقة وبلغت شمس النهضة أوجها في العصر الحديث عندما علمت الأمم والأقوام والشعوب أنه من واجبها الخروج من عزلتها للاتصال بالآداب الغريبة عنها لتستمد منها قوة جديدة أو لتمدها بنسغ ثمين ينقل اليها الحياة .

لا شك في أن الأدب المقارن لا يصل إلى نتائج ايجابية وموضوعية إلا بعد ابحاث دقيقة تتعلق بالآداب القومية وبمميزاتها وقد تصلح هذه الدراسات لتحديد خصائص آداب كل أمة أو قوم أو شعب وقد تصلح لاستقصاء الأدب القومي وكشف هويته والتعرف على مدى اسهامه فنيا وفكريا في التراث الأدبي العالمي ولذا لا ننكر حق هذا الشعب وتلك الامة في ضرورة

الاهتمام بقضايا ومشكلات تهمهما اكثر من غيرهما ولكننا نأبى تسخير هذا العلم لخدمة العنف والتعصب واستعماله كتورية او كسلاح لنزعات سياسية فالدراسات المقارنة تحمل رسالة انسانية وتسعى دائبة نحو التحرر والسلام وحرية الفرد والمجتمع وهي تعلم الباحث معاني الانسانية السامية وتبعده عن الأمَمية والشعوبية وتدعوه إلى التآخي والتسامح وتعلمه ان الحضارة الانسانية تشبه الألعاب الأولمبية يحمل شعلتها لفترة وجيزة شعب معيّن ثم تؤول الشعلة دون أن تخبو إلى شعب آخر .

ان الدراسات المقارنة رغم حداثتها هي مادة تربوية وتثقيفية وقد اصبح الادب المقارن علما اصيلا تعنى اكثر الجامعات في أوروبا وأميركا بتدريسه وعلى الاخص جامعات فرنسا وايطاليا وسويسرا والولايات المتحدة الأميركية ولم تقتصر بعض هذه الدول على تدريس الادب المقارن في الجامعات والمعاهد العالية بل صارت تلقن الطلاب في مرحلة الدراسة الثانوية مادة الأدب المقارن الخام فيعطى هؤلاء الطلاب مبادىء الآداب الاجنبية من خلال نصوص تبين علاقات تلك الآداب الاجنبية بالأدب القومي . ويقوم ايضا طلبة الدراسات العالية والدكتوراه ببحوث كان لها كبير الاثر في خلق الادب المقارن واظهاره كعلم له مقوماته وخصائصه وقد بينت المواضيع التي اختارها معظم المقارنين والذين تقدموا بها لنيل الدرجات الجامعية تشعب مادتهم وغناها فاختار بعضهم دراسة مصير الاجناس الادبية

ومصير أبطال الاساطير أو التاريخ ومصير المدارس الادبية والتيارات الفكرية أو الفنية ونظروا بامعان في مسألة التأثيرات والتأثرات .

ان ما لقيته الدراسات المقارنة من اهتمام وعناية في اكثر جامعات العالم كان له صداه في جامعات البلدان العربية التي ادخلتها في مناهج تدريسها وذلك للاسباب التالية :

١ ــ يتقن الطالب العربي عدا لغته الأم لغة أجنبية واحدة أو لغتين اجنبيتين مما يساعده على مطالعة الآداب الاجنبية بلغتها الاصلية .

٢ ــ ان معرفة اللغة الاجنبية ومطالعة الروائع العالمية تؤديان إلى خلق روح ناقدة تعتمد المقارنة والقياس اللذين يحددان المتماثل والمتخالف والشبيه والمغاير والمتوافق والمتناقض فالمقارنة تظهر العلاقــة القائمة بين أدبين وتحدد التماثل والتخالف ودرجتهما ومقدارهما وتكون هناك عتبة هي بمثابة حد يفصل الشبيه عن نقيضه . ان تلك العتبة ضرورية لوضع أسس نظام يمنح كل أدب هويته ويحدد العلاقات التي تربطه بغيره فتصبح عملية ضبط هويته ميسورة اذ نستطيع إما أن نصنفه بالنسبة لمجموعة آداب معينة وإما أن نحلله إلى عناصره فيظهر على حقيقته .

٣ ــ ان الادب المقارن نوع من الدراسات الادبية الحديثة

وشأنها شأن كل دراسة أدبية : تقوية روح النقد في الباحث وقد اسهم الأدب المقارن في وضع قواعد النقد الحديث وبيّن أنه يطبق الاحكام التاريخية والاحكام الوجدانية على حد سواء .

آ- الاحكام التاريخية :

قد يعتمد المقارن الطرق النقدية التاريخية التي وضعها (Lanson) فالأدب المقارن من فصيلة الأدب العـام ولكل منهما تاريخ يخضع للتاريخ العام وكلنا يشعر بوطأة التاريخ الذي يكّيفنا ويتحكم فينا وقد لاقت تطبيقات الدراسات التاريخية على الدراسات الادبية بعض النجاح وأخذ المقارنون هذه الطرق عن دارسي تاريخ الأدب وطبقوها ليس على الادب الحديث فحسب بل على القديم أيضاً وتناولوا بابحاثهم العلاقات التي ربطت أدب الاغريق بالأدب اللاتيني وفتشوا عن طرق انتشار آداب الصين والهند في بلاد فارس وفي منطقتي الشرق الأوسط والأدنى وسبروا غور الماضي البعيد يبحثون عن نشوء المأساة أو الملهاة وعادوا إلى المصادر والمراجع القديمة وفتشوا عن الاغراض والمواضيع التي تعتبر موادا خاما لكل أدب وقد وفقوا في تحليل طرق التبادل الثقافي والفكري وبينوا كيف نشأت التيارات والنزعات والمدارس الأدبية . . . ان انصار هذه المدرسة التاريخية المقارنة يضعون مؤلفات تكتظ بالمعلومات وقد تصلح مصنفاتهم لمعرفة تاريخ الشيء والتاريخ مفيد يستعين به الذين يمارسون التعليم خاصة .

ب ـ الاحكام الوجدانية :

يأبى أنصار هذا النوع من الاحكام التزام الطرق التاريخية ويدعون أن أحكامهم شخصية مستمدة من تأثرهم وانفعالهم لدى مطالعتهم الأثر الأدبي وأن نقدهم صادر عن احساسهم بنشوة معينة يشعرون بها اثر اطلاعهم على آثار تحمل السمة عينها دون أن تجمعها الصلات التاريخية .

وبينما يرى انصار الطريقة التاريخية ضرورة تقيد المقارن بعلم التوثيق (documentation, érudition) ويفسرون بالتاريخ نشوء المواضيع الادبية وارتقاءها ويبينون التأثرات والتفاعلات التي اسهمت في تطوير النماذج الأدبية ويتابعون تاريخ عقدة أوديب ومختلف اشكالها في آداب الأمم ونشوء النرجسية في آداب الشعوب . يرى خصومهم اصحاب الطريقة الوجدانية أن التاريخ طلاء زائف وان الناقد الحق يلفظ احكاما صادرة من صميم الوجدان ومن اعماق القوى النفسية ويقولون: ان الاغراض والمواضيع هي مادة لا أدبية (a-littéraire) بحد ذاتها فالاديب الفذ هو الذي يحوّل ما ورث من مواضيع ويتمثلها لكي يؤثر على قرائه بفضل الشكل والتعبير والانشاء والناقد الحق هو الذي يصنف ما يقرأ حسب فصائل وزمر تقوم على وشائج يحس بها ذوقه المرهف وقد يؤيدها التاريخ او ينقضها فذلك سيّان عنده وقد كشف بعض انصار هذه

الاحكام علاقات قامت بين بعض الادباء بواسطة الحدس ، وكانت الطريقة التاريخية قد عجزت عن ايضاحها .

أحكام تاريخية أو أحكام وجدانية ؟ فئتان من الاحكام اسهمتا في الكشف عن عالم الخلق والابداع وسلطتا الاضواء على خفايا الفكر المبدع والخلاّق .

٤ ـ لا بدَّ لكل مادة دراسية جامعية من أن تصل إلى نتيجتها المحتومة أي إلى إثارة مشكلات ومحاولة حلّها ولذا نرغب في أن نضع دراسات نبيّن فيها ما للأدب العربي على الآداب الأخرى وما للآداب الأجنبية على الأدب العربي . وقد تعودت معظم الجامعات الاوروبية في تخطيطها لمنهج الأدب المقارن لفت الأنظار إلى أدبها القومي فسوف نحاول نحن دون أن نبتعد عن الموضوعية أن نجعل أدبنا القومي مركزاً تدور حوله ابحاثنا فتتنوع وفق طبيعة علاقات أدبنا بالآداب العالمية وصلات مجتمعنا بغيره من المجتمعات والشعوب فازدهار الدراسات المقارنة منوط بعصور النهضات وبحقب الوعي القومي والانساني . وما استمد أدبنا انسانيته إلا مما نهله من موارد التجديد ومن تشبعه بفن انساني جعله يتبوأ مكانة مرموقة بين مجموعة الآداب العالمية بفضل كتابه وأدبائه وشعرائه الذين رسخت فيهم النزعة الانسانية . (Humanisme)

لمحة تاريخية

اذا رحنا نبحث في تاريخ الآداب الاوروبية سوف نجد ظواهر تعود دراستها اليوم إلى الأدب المقارن . تبدو هذه الظواهر على شكل تيارات مؤثرة ومتأثرة تحمل ما كتب بلغة وطنية معينة إلى اللغات المجاورة وبالعكس وقد تظهر التيارات على أشكال ثلاثة فاما المستعير يتقبل ما يأتيه من الخارج مباشرة او يحوره او يرفضه فهناك اذا تأثرات وتأثيرات مباشرة وصريحة أو محورة أو عكسية وذلك في حالة مقاومة البلد أو الاديب النموذج الذي يفرضه عليه أدب أمة أخرى أو أديب غريب عنه فينتج عن هذه المقاومة نموذج يتناقض مع الاصل (صورة كليوباترة مثلا في الادب الغربي وفي مسرحية شوقي : تبدو كليوباترة في الآداب الغربية نموذج المرأة الشرقية المستهترة التي تلهو وتلعب وتفسد الصالحين بسحرها ودلالها ولا شك في ان شوقي تأثر بالادب الغربي تأثرا عكسيا حين جعل من كليوباترة مسرحيته بطلة الوطنية الصادقة التي تضحي بحبها في سبيل الواجب والذود عن أرض الوطن) .

ومن الطبيعي أن يسبق ظهور الأدب المقارن كعلم مستقل وجود محاولات سعت في تحليل التفاعل الذي حدث في الآداب

الغربية وفي دراسة الاحتكاكات التي جرت بين بعض الآداب الاوروبية وبما أنه لا يظهر شيء من العدم فمن المستحسن متابعة عملية نشوء وارتقاء الادب المقارن وظهوره كعلم موضوعي .

التأثير والتأثر والأدب المقارن :

تعرض النقاد قبل أن يظهر مصطلح **الادب المقارن** لقضية العلاقة التي قامت بين الأدب الرومـــاني والأدب اليوناني . تغلب الرومان على اليونانيين عسكريا ولكن المغلوبين فرضوا على غالبيهم فكرهم وثقافتهم مما جعل المؤرخين يصرحون بأن روما مدينة لليونان في فلسفتها وفنها ونزعتها الانسانية وادبها كله . واعتبر الرومان الادب اليوناني كمثل يقتدى به وها هو الروماني هوراس (٦٥ ـــ ٨ ق.م.) يدعو صراحة في شعره إلى محاكاة اليونان : « اتبعوا أمثلة الاغريق ، واعكفوا على دراستها ليلا واعكفوا على دراستها نهارا » . ومعنى هذا أن هوراس كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن محاكاة اليونانيين في أدبهم وشعرهم مجدية ومثمرة . وبعد ان أزدهر الأدب الروماني حاول المؤرخون الرومان مقارنة ما انتجه كتابهم وشعراؤهم بالنماذج اليونانية ولئن كانت طرقهم تعد محاولة ساذجة للمقارنة فهي في حينها مرحلة سجّلها التاريخ لحساب الأدب المقارن .

سيطرت في العصور الوسطى العقيدة النصرانية على الجزء الاكبر من اوروبا الذي تبنى اللغة اللاتينية في علمه وأدبه كما

أنها كانت لغة الكنيسة فترتب على هذا أن تغلغلت روح المسيحية في الانتاج الأدبي بواسطة رجال الدين الذين كانوا يستنسخون المخطوطات في أديرتهم ويعلمون وينتجون الادب شعرا ونثرا . ثم وحدت روح الفروسية معظم الآداب الاوروبية وطبعتها بميزتها الخاصة فتجلى أول مظهر من مظاهر عالمية الأدب (cosmopolitisme) ولكن ما خلفته تلك العصور من انتاج أدبي لم يكن موضع دراسة مقارنة قامت بها الطبقات المثقفة في حينه .

اخذت الآداب الاوروبية في عصر النهضة تستقي مادتها من الادب اليوناني واللاتيني وكان للعرب فضل في توجيه انظار الاوروبيين إلى قيمة النصوص اليونانية اذ قاموا فعلا بنقل جزء كبير من الفلسفة اليونانية والعلم الاغريقي وقد التفت حينئذ الاوروبيون إلى النصوص القديمة ورجعوا اليها في لغاتها الاصلية وأخذوا يطبعون الكتب والمؤلفات اللاتينية واليونانية ويترجمونها ويعلقون عليها وهكذا صار الادباء في تلك الحقبة يستمدون موضوعاتهم من الآداب القديمة ويأخذون منها الافكار ويقلدونها ويحاكونها فقامت ثورة فكرية عمت اكثر انحاء اوروبا الغربية هدفها الخروج على آداب العصور الوسطى ذات الطابع المسيحي وتبني الأدب الوثني الاغريقي اللاتيني وبما ان الكتاب والادباء والشعراء تخلوا بعض الشيء عن قوميتهم الضيقة وتحلوا بالكوزموبوليتية العالمية نعد تجربتهم كحقل خصب للدراسات المقارنة .

قام القرن السابع عشر بعملية تقعيد الأدب أي وضع قواعد ومعايير ومقاييس لمختلف المواضيع الادبية واتّخذ من الاداب القديمة عاموده وتقيّد الادباء بهذه القواعد واصبحت مراعاتها مقياسا للحكم على جودة انتاجهم الادبي وقد تبنوا نظرية المحاكاة (imitation) وقد ازدهر في ظلها الادب الكلاسيكي الذي اصبح قبسا وهاجا شعّ نوره على فرنسا وعلى بلاط لويس الرابع عشر ومنه على أوروبا بأسرها .

توثقت الصلات بين مختلف الآداب الاوروبية في القرن الثامن عشر الذي اشتهر بعالميته الكوزموبوليتية ومال الفرنسيون انفسهم إلى التعرف على آداب كانوا يجهلونها كآداب اوروبا الشمالية وكالادبين الانكليزي والالماني .

وعلينا ان نتساءل اثر لمحتنا التاريخية هذه: متى ظهر لاول مرة اسم الأدب المقارن ؟ وجدت بالطبع الظاهرة قبل التسمية اذ لا تعود التسمية الصريحة لهذا العلم الا إلى سنة ١٨٣٠ ولا يعني تأخر ظهور التسمية أن العصور القديمة لم تخضع لحركة التأثير والتأثر وان عصور النهضة الكلاسيكية والتنوير كانت خالصة من كل تفاعل فالتبادل حدث دون شك وقد جاءت الابحاث الحديثة تبرز دور التأثير والتأثر وهاكم بعض الامثلة التي نسوقها من الأدب الفرنسي لعلها تبين مدى انفتاحه للتأثرات الخارجية: غزا الادب الايطالي فرنسا في عصور النهضة وفي

القرن السادس عشر ولكن الذين نسجوا على منوال الايطاليين أمثال Ronsard و Du Bellay ما كانوا يشعرون بأنهم ينهلون من أدب غريب عنهم لان الآداب الايطالية والاسبانية والفرنسية تعود في نظرهم إلى أصل واحد ومرجع واحد ولغة واحدة وما الايطالية والاسبانية والفرنسية الا لهجات لغة واحدة ولذا العبور من أدب رومنسي (roman) إلى آخر ميسور ولكن حسب زعمهم الامر يختلف عندما يطلع سليل اللغة اللاتينية او اللهجات الرومنسية على أدب صيغ بلغة لا يفهمها كالانكليزية أو الجرمانية فكان جهل الرومنسي لهاتين اللغتين يجعله ينظر إلى الشعوب غير اللاتينية نظرة ازدراء واحتقار ويصمها بالبربرية والهمجية .

حدثت في القرن الثامن عشر تغيرات جذريـــة في عقلية الفرنسيين الذين الموا بعض الشيء بالأدب الانكليزي والالماني وكانت بوادر هذه التغيرات قد ظهرت في نهاية القرن السابع عشر حين حدثت هزة عنيفة في الضمير الاوروبي وصفها عام ١٩٣٥ الاستاذ Paul Hazard في أبلغ مؤلف انتجتـــه الدراسات المقارنة في فرنسا (انظر **La crise de la conscience européenne**) وقد جرت الامور على الشكل التالي : أطلت فرنسا على الفكر الانكليزي واحست بواقعية الشعب المجاور لها وغذّى فكر Locke و Newton وعدد كبير من علماء الانكليز روح فلاسفة عصر النور اي

Voltaire و Montesquieu و Diderot كما اجتاح التيار الانكليزي الادب الصرف فتتلمذ كتاب القصّة لـ Richardson و Fielding و Sterne وتدفقت شاعرية انكلترا على فرنسا تحمل في موجاتها قصائد الليل والقبور والتفجع وتذوق الفرنسيون قصائد Young وتغنوا بقصائد المزور Mac Pherson الذي نسب انتاجه الشعري إلى الشادي Ossian والتفت في الفترة عينها Voltaire إلى آثار Shakespeare واعارها اهتماما خاصا وكبّر لها اعجابا ولكنّه ما لبث ان غير رأيه في امام الادب الانكليزي وترجم Le Tourneur في الفترة الواقعة بين ١٧٧٦ و ١٧٨٢ آثار Shakespeare التي اثارت اعجاب معاصريه حتى ان Diderot صرخ قائلا : « ان شكسبير عملاق نحتته قوى الطبيعة ونحن اقزام نستطيع ان نمر بين ساقيه » .

اجتاحت فرنسا في أواخر قرن النور موجة المانية حملت اليها شعر Gessner الرعائي وشعر Klopstock الديني وآلام Werther التي كتبها بمداد قلبه شاب في مطلع حياته الادبية يدعى Goethe فادخلت هذه التيارات الغريبة الوافدة إلى فرنسا اعتبارات جديدة في تقييم الادب الفرنسي القومي ونقده والتعرف على علاقته بالآداب الغريبة . اقتنع الكلاسيكيون في القرن السابع عشر بوجود مقاييس ومعايير للجمال المطلق وظنوا أن أدبهم يتوق إلى الجمال عندما يقترب منها ويماثلها او يدانيها

بينما نرى ان القرن الثامن عشر لم يعترف بهذه المقاييس وأنكر وجود جمال مطلق وبيّن أن الجمال يخضع لقوانين النسبية وأنه يتجلى بأشكال متعددة تعود إلى الاقليم والزمان والمكان والعرق والجنس واللغة والعادات والتقاليد ... وقد أدت مشكلة الشك بمقاييس الجمال المطلقة إلى طرح مسألة نسبية الجمال وإلى تذوق آداب وصمها الاقدمون بالبربرية وإلى التلذذ بها والاشادة بميزاتها وقد أدت الدراسات التي دارت حول نوعية الآداب الاوروبية إلى تقسيم قارة اوروبا إلى مناخين أدبيين شمالي وجنوبي فاعتبر الجنوب كمركز للأداب الكلاسيكية والشمال كنقطة لانطلاق الحركة الرومانتيكية .

كان للرومانتيكية تأثير كبير في نشأة الادب المقارن وفي تسيير الدراسات الادبية نحو وجهة قد تكون مقارنة ونحن لن نقيم موازنة بين مبادىء الرومانتيكية ومبادىء الكلاسيكية (سلطان العقل وسيطرة العاطفة — الهدف الخلقي في الانتاج الادبي وانكاره — مفهوم البطل وطبقيته — تجريد البطل من أطر الزمان والمكان وارتباطه ببيئته ووسطه — العودة إلى المصادر الوثنية والعودة إلى المناهل النصرانية ...) فموازنة كهذه هي من اختصاصات دروس النقد والمدارس الادبية ولكننا نريد أن نبين ان الحركة الرومانتيكية طعنت في مقاييس ومعايير عاشت عليها الانسانية اكثر من عشرين قرنا وعندما تحطم العامود الكلاسيكي ظهرت نتائج بعيدة المدى أبرزها أن الرومانتيكيين صاروا

ينظرون إلى الأدب على أنه من انتاج الفرد وعبقريته لا على أنه قوالب تقليدية فاصبح النقد يفسر الانتاج الادبي تفسيرا علميا ويبين خصائصه الغنية ويظهر العلاقة القائمة بين الاديب وبيئته وجنسه وعرقه وطبقته ويحدد مقدار دينه لمن سبقه من الادباء والكتاب والشعراء فاستفاد النقد بشكل عام والادب المقارن بشكل خاص من هذه النظريات الجديدة .

ان الائمة الذين دعموا النظريات الجديدة هم Guillaume Schlegel و Mme de Staël واصدقاؤها ورواد ندوتها في قصر ومحلة Coppet التي تقع قرب مدينة Genève في سويسرا.

اشتهرت مدام « دي ستال » بسعة اطلاعها على الآداب الاجنبية عامة والادب الالماني خاصة وانتقدت اولئك الذين يحتقرون الآداب الاجنبية ولا يهتمون بدراستها ودعت إلى دراسة الآداب في لغاتها الاصلية واستشهدت بالآداب الاجنبية لتبين وجوه تشابهها ووجوه اختلافها وتحدثت أحيانا عن مبادىء عامة تتعلق بنشأة بعض الفنون الادبية وأغراضها وأسسها وبواعثها في فرنسا وفي الامم المجاورة لها . لعب مؤلفها عن المانيا (**De l'Allemagne**) الذي نشرته في عام ١٨١٠ (ولكن السلطات البونبرتية احتجزته ولم يتداوله القراء الا في عام ١٨١٣) دورا هاما في مصير الدراسات المقارنة وقد بثت فيه أفكارا جديدة استقتها من الادب الالماني كما أنها اولت عنايتها الخاصة لابراز خصائص العقلية الالمانية ولاقامة موازنة

بين الأدب الفرنسي والادب الالماني وقد أشادت في مؤلفها بالنفع العميم الحاصل من التأثر بالروح والعقلية الاجنبية :

« هناك شيء غريب يميز الشعوب عن بعضها البعض وقد يعود هذا إلى البيئة واللغة ونظام الحكم واحداث التاريخ المشتركة التي تفوق قوتها كافة العوامل التي ذكرناها ومهما بلغ المرء من الذكاء الحاد يصعب عليه أن يتتبع ما يخامر فكر من يعيش على أرض هي ليست أرضه ويتنفس هواء هو ليس هواء بلده ولكنه يجب علينا أن ننفتح لما هو أجنبي وأن نكون مضيافين حتى لما هو غريب عنا أو ليس ، في نهاية الامر ، نحن الذين نجني ثمار ذلك الانفتاح ! »

والحق ان مدام « دي ستال » باطلاعها الواسع على الآداب الاجنبية بلغاتها الاصلية وشغفها بدراسة عقليات البشر ودعوتها الملحة إلى تلك الانواع من الدراسات وتوكيدها على أصالة كل شعب من شعوب الارض واشادتها بالفائدة الناتجة عن الانفتاح للتيارات الغريبة تكون قد دعت صراحة إلى ضرورة الخروج من نطاق الادب القومي وتجاوزه للاطلاع على الآداب الغريبة وموقفها هذا يشبه مواقف المقارنين ونظرتها للأدب تماثل نظرة ارباب الادب المقارن الحقيقيين .

رأينا ان العلم الجدير بأن يسمى « الأدب المقارن » ظهر في الربع الاول من القرن التاسع عشر ونعت هذا النوع من الأدب بالمقارن وذلك أسوة بعلوم التشريح والحيوان والنبات التي

اتخذت لها وجهة مقارنة وقد أخذ الذين يهتمون في هذه الفترة بالأدب المقارن يدرسون أي أدب كان وكأنه ينشأ ويرتقي تماما كما تنشأ وترتقي الحيوانات والنباتات تبعا لمبادىء النشوء والارتقاء وراحوا ينظرون كيف ينشأ الموضوع (thème) الأدبي وكيف يتدرج في النمو وكيف ينتقل في مراحل نموه واكتماله من أدب إلى آخر . تبنّى (Jean-Jacques Ampère) نظريات المنهج الأدبي الجديد واطلق على مؤلف له اسم « التاريخ المقارن للفنون والآداب لدى كافة الشعوب » .

« L'histoire comparative des arts et des littératures chez tous les peuples.»

وقد عقبت هذه المحاولة محاولات أخرى قام بأهمها (Villemain) الذي وضع مؤلفا في الأدب المقارن قد اتبع فيه طريقة علمية سليمة وكان صاحب المؤلف قد ألقى في سنة ١٨٢٨ مجموعة من المحاضرات في الدراسات المقارنة. وقد اتسمت لغة مُصنفِه بطابع العصر الخطابي والكلامي والبياني ولكن روح مصنفه علمية صرفة فعدا المعلومات التي قدمها في لوحة أدبه (**Tableau de la littérature au XVIII °S**) عن فرنسا وانكلترا والبلاد المجاورة للبحر الابيض المتوسط نراه يتابع نشوء الأفكار وانتقالها من بلد إلى آخر وتغلغلها وأثرها وتأثرها بشكل مباشر أو غير مباشر .

كان دأب العاملين في حقل الأدب المباشر هو التحري عن

الغريب الطارىء على الأدب الوطني أو الوطني المنتقل إلى آداب الامم المجاورة وكان ديدانهم مقارنة ما يجري في الخارج مع ما يجري في فرنسا ولكنه سرعان ما ظهر التخصص واستقل الأدب المقارن عن باقي الدراسات الأدبية وبعد أن قطعنا هذه المرحلة التاريخية مع الأدب المقارن علينا ان نشير إلى أنه سينطلق من فرنسا إلى رحاب ميدان فسيح لا يتسع لنا الوقت لمتابعته ونكتفي بذكر أهم أحداثه فمن النافلة أن نتتبع مراحل ارتقاء هذا العلم الناشىء عبر الزمن وعبر مختلف المناطق الجغرافية وسوف نكتفي بذكر اسماء بعض ائمته وبعض عناوين مؤلفاتهم .

وضع (Posnett) في سنة ١٨٨٦ أسس منهجية الأدب المقارن وذلك في مؤلفه (**Comparative Literature**) وألقى في العام نفسه (Edouard Rod) سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الآداب المقارنة ولم يحل الحول الا و (Max Koch) يصدر **مجلة الأدب المقارن** .

ناقش جوزف تيكست (Joseph Texte) في عام ١٨٩٥ اطروحته عن روسو وعن مصدر عالمية الأدب .

(**Jean-Jacques Rousseau et les origines du cosmopolitisme littéraire**)

وتعد هذه الدراسة كباكورة لدراسات رصينة سوف تصدر

عن فرنسا. انصرف بيتز وبالدنسبرجر (Betz et Baldensperger) لوضع بيبليوغرافية الأدب المقارن الشهيرة وقد تبين من ثبتها لعام ١٩٠٤ أن أكثر من ستة آلاف مصنف ودراسة خصصت للأدب المقارن ويدل ذلك على مدى انتشار هذا النوع من الدراسات وسوف يتبوأ بالدنسبرجر مكانة مرموقة طوال نصف قرن ومن مآثره تعاونه مع بول هازار (Paul Hazard) وتأسيسهما مجلة الأدب المقارن الفرنسية . . .

حافظت فرنسا على دورها الرائد في الدراسات المقارنة لا ينازعها منازع في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ولكن الدول الكبرى أخذت تكتشف شيئاً فشيئا هذه الدراسات العالمية والانسانية فراحت المانيا مثلا تتباهى بمقارنها المعروف «كورت ويس» Kurt Wais وتقبل الاتحاد السوفييتي هذا النوع من الدراسات وكان قد وصمها بالبورجوازية ونشطت في اليابان حركة هامة يرعاها عدد كبير من المقارنين . فما علينا بعد هذا العرض التاريخي السريع إلا أن نحدد عدة المقارن وحقل اختصاصه وميدان بحثه ومجالات نشاطه .

***

عُدّة المقارن

ان لكل مسألة من مسائل الأدب المقارن قواعدها الخاصة ومنهجيتها النوعية ولكن هناك شروطا عامة واساسية يجب أن تتوافر في كل من يعاني الدراسات المقارنة أو — ان صح التعبير — لا بدّ للمقارن من عدة كما يسميها (Van Tieghem)

اولا — على الباحث في الأدب المقارن أن يتحلى بثقافة تاريخية تتيح له احلال الاثر الأدبي محله بالنسبة للاحداث التاريخية التي تؤثر في مجراه وفي توجيهه وأنّى لبول هازار مثلا الوسائل لدراسة موضوع « الثورة الفرنسية والآداب الايطالية » **La révolution française et les lettres italiennes 1910** لو لم يكن مطلعا تمام الاطلاع على تاريخ كل من فرنسا وايطاليا في الفترة التي تناولها بحثه؟ وهل يثار موضوع مدى تأثر الاسبان بالأدب العربي ما لم تدرس الصلات التي قامت بين الشعبين والنزعات السياسية والعنصرية التي أدت إلى تنشيط لون معين من الأدب وتحديد مراكز انتقال المعرفة العربية إلى الاسبان كالمدارس التي توافد اليها الشعراء والكتّاب وقصدها الغربيون لينهلوا من معينها وأهمها مدارس ومعاهد قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وهكذا راج

الأدب العربي وراجت العلوم بأنواعها في الاندلس وانتقلت بذور هذه النهضة المباركة عبر الحدود واحدثت انقلابا خطيرا في العالم الاسباني والغربي .

ثانيا – على المقارن أن يطلع على أكبر عدد ممكن من الآداب الاجنبية ليتسنى له أن يحدد نوعية الصلات والعلاقات التي تقوم بين أدبين أو أكثر ؟

ثالثا – على المقارن أن يعرف عددا كبيرا من اللغات وقد طرح أكثر المقارنين على بساط البحث مشكلة مطالعة الآداب في لغاتها الاصلية ومشكلة الاطلاع على الدراسات المقارنة بلغتها الاصلية أو بنصها المترجم .

لكل لغة عبقرية خاصة ولا نتذوق الأدب الجميل الا بقراءة نصوصه بلغته الاصلية وعلى هذا فانه من الافضل العودة إلى الاصل بدلا من اللجوء إلى الترجمة واذا لم يكن هناك من مفر الا الاعتماد على الروائع المترجمة نقول : ان هذا النوع من الترجمة فن خاص وعملية شاقة ودقيقة قد تستوجب عشرات السنين لاكتساب المران الكافي في ترجمة الشعر خاصة . وقد نشطت الآن حركة الترجمة وقد نقل الغرب إلى لغاته آثار العرب والفرس والترك ونقل العالم الشرقي إلى العربية والفارسية والتركية روائع التراث الغربي . ان المترجمين يقومون بدور الوسيط وجدير بكل مترجم كفء أن يكرّس جزءا من حياته لكي

ينقل إلى أدبه القومي ما استساغه من الآداب الاجنبية واذا كانت الترجمة خيانة فانه لا بدّ منها وهي أهون الشرين والافضل ان نعرف روائع الآداب العالمية مترجمة من أن لا نعرفها مطلقا وقد يعجز المقارن عن قراءة النصوص الادبية في اللغات الاجنبية فالانتاج الادبي الحديث والقديم غني ولا نستطيع أن نقحم المقارن في اعباء قد تثقل كتفيه ولا يجوز لنا أن نطالبه بأكثر من طاقته علماً منا بان المقارن ان لم يستعن مثلا بترجمات الروايات الحديثة فهو لا يستطيع تحليل عناصر القصة الحديثة أو الكلام عن تطورها وانتشارها .

ان العدد الهائل من اللغات الاجنبية ومحدودية القوى الانسانية يعوقان عملية التعرف على اكثر الآداب في لغاتها الاصلية وكم من رائعة لم يعرفها الاغراب الا عن طريق الترجمة وما دام أن معظم الانكليز عندما يستشهدون بالرباعيات يجهلون الفارسية وقد اكتفوا بقراءتها في ترجمة فيتزجرالد (Fistzgerald) ظنا منهم ان ذلك يكفيهم مؤونة الاطلاع عليها كما أوردها الخيّام فليكن اطلاعهم هذا من اختصاص المقارن الذي سيظفر بصورة وهمية قد خامرت أفكار الانكليز وساعدتهم على تصور الرباعيات وصاحبها .

يختلف الامر بعض الشيء عندما يحاول المقارن الاطلاع على الدراسات المتخصصة في الأدب المقارن وهنا ايضا ان العدد الهائل من اللغات الاجنبية ومحدودية القوى الانسانية وبروز

الشوفينية القومية وعوامل أخرى غامضة تعوق تقدم الدراسات المقارنة. يسعى اغلب المقارنين مثلا في فرض لغاتهم على الآخرين فيقول الانكليزي أن لغته أكثر تداولا في العالم من أية لغة أخرى فيرفض الروسي اقتراحه متذرعا بأن المعسكر الاشتراكي لن يقبل بسيطرة لغة الامبريالية الانكليزية الاميركية . وقد يدعي الفرنسي أن لغته لعبت دورا تاريخيا هاما مدة عدة قرون وكانت لغة العالم الغربي وحضارته . وأنه قد كتبت فيها حين نشأ الأدب المقارن اكثر ابحاث هذا العلم ودراساته فيأبى العالم أجمع قبول هيمنة لغة لا يتكلمها سوى ستين مليون نسمة وقد طالب البعض بمعالجة أبحاث الادب المقارن نظرا لعالميته بلغة الاسبرانتو الاصطناعية البعيدة عن كل واقع اجتماعي والخالية من كل صبغة جمالية أو أنهم حسما لهذا الخلاف المستحكم ، ينادون بضرورة استعمال اللاتينية ولكن هل يقبل العالم لغة قد اندثرت وتخلت عنها حتى الكنيسة الكاثوليكية ؟ وقد اعتاد المقارنون استعمال اللغات الاوروبية في أبحاثهم ولكنهم يشعرون بخيبة مريرة ازاء دراسات نشرت في لغات لم يألفوها كاليابانية والعربية والهندية والبولونية وقد تعالج هذه الدراسات مواضيع جديرة باهتمام المقارن كما أنهم يرون شعوبا تتألف من عشرات الملايين ومئات الملايين تدخل افواجا في علم المقارنة كالصين واليابان فيتساءلون : هل ستفرض هذه الشعوب لغتها على الأدب المقارن ؟

تسير عجلة الزمان بسرعة ولا يستطيع المترجمون اللحاق بها بنقلهم كافة الدراسات التي تتعلق بالأدب المقارن ويعلق اكثر المقارنين آمالهم على الالات المترجمة لعلها تزودهم بما فاتهم من الابحاث . لن تقومن هذه الالات مكان المترجم الذي يهتم خاصة بالشعر وبالنصوص الرائعة ولكنها سوف تقدم خدمات قيمة لنقل الدراسات المقارنة إلى لغات سوف تسيطر على عالم المستقبل وهناك عدد كبير من الدراسات القيّمة والرصينة تنتظر الفرصة السانحة لتعرف الرواج فهل من مترجم حكيم سوف يساعدها على الخروج من عزلتها او من آلة دقيقة سوف تتيـــح لها الانطلاق من فرديتهـــا لتصبح في متناول اكثر شعوب الارض .

رابعا ــ على المقارن ان ينحرى عن المعلومات في مظانها والفهرس البيليوغرافي هو الذي يساعده على الوقوف على كل ماكتب في الموضوع الذي يرغب في أن يعالجه . ويدله على نقطة انطلاق بحثه وعلى المشكلات التي اثيرت حوله وعلى المسائل التي اشبعت بحثا وتمحيصا وعلى تلك التي لا تزال قيد الدرس . وفي الحقيقة يصعب تحديد قواعد قد تصلح للمقارن العربي ولا غنى له للقيام بمثل هذه البحوث عن الاسترشاد بآراء المطلعين والمتخصصين والاستعانة بها وذلك لجدة هذه الدراسات وحداثتها . أما الباحث الغربي فانه يجد أمامه الطريق ممهدة اذ زود الاوروبيون والاميركيون مكتباتهم بادوات تسد بعض حاجات المقارن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

الفهارس البيبليوغرافية :

وتأتي في طليعة ما يجب أن يحصل عليه المقارن ليهيىء مصادر أبحاثه ونذكر منها بيبليوغرافية (Betz) التي جدّدها واعاد طبعها Baldensperger et Friederich فضمناها اكثر من ثلاثين الف عنوان رسالة وبحث في الأدب المقارن :

ثم الفهرس التاريخي للآداب الحديثة (**Répertoire chronologique des littératures modernes**) الذي أشرف على اعداده ونشره (Van Tieghem) وهو فهرس فيه ثبت مفصل لكل ما ألف في اوروبا منذ اختراع الطباعة لغاية مطلع القرن العشرين (١٤٥٥ — ١٩٠٠) وهو يصنف الانتاج الادبي الاوروبي في لوحات شاملة مرتبة ترتيبا زمنيا وهو يحوي مثلا هذه المعلومات عن عام ١٨٠٢

— Allemagne : Goethe, **Iphigénie**; mort de Novalis auteur des **Hymnes à la nuit**

— Angleterre : Fondation de l'**Edinburg Review** ; Walter Scott, **chants des ménestrels de la frontière écossaise.**

— France : Mme de Stael, **Delphine**; Chateaubriand, **Génie du Christianisme, René.**

— Italie : Foscolo, **Dernières lettres de Jacopo Ortis.**

وتخصص بعض المنشورات الدورية في كل عدد من اعدادها قسما منها لما تظهر من مراجع ومصادر وابحاث مقارنة في اوروبا واميركا : انظر

- Revue de littérature comparée (فرنسا)
- Comparative Literature (الولايات المتحدة الاميركية)
- Publications of the Modern Language Association (اميركا)
- Modern Humanities Research Association (انكلترا)
- Regesten (هولندا)

رسمنا اعلاه العدة التي يستعين بها المقارن لتكون محاولاته موفقة وليكلل النجاح مساعيه ورغم ان الأدب المقارن بحر لا آخر له يستطيع كل باحث أن يخوض عبابه أو أن يغوص فيه ليفتش فيه عن درر مادته من غير أن يزاحم أحدا . فهو أيضا من العلوم المعقدة ولذا يجب أن تتوفر في المقارن صفات ومميزات يندر وجودها في شخص واحد :

نريد المقارن مؤرخاً لكي يحسن قراءة النصوص الادبية ضمن أطرها التاريخية وحدودها البيئية ونريده هاوي الجمال ومتعشق الشعر والمسرح يطالع مدفوعاً بالذ وجدانيا ونريده محللاً وتمحصا وناقدا والأدب المقارن هو شيء من النقد ونريده في نوقت الذي تتقيد فيه كافة العلوم بالاختصاصات الضيقة بحرا زاخرا وعالما انسانيا قد تمتل معارمات متنوعة وقد تشبع بثقافة عامة واسعة تؤهله فهم علم الاجتماع وعلم النفس وتحليل

انتاج عصره الفني كالرسم والنحت والموسيقى الخ . . . أي أن يكون دائرة معارف وموسوعة علمية ونطلب منه أن يتقن عدة لغات أجنبية تتيح له الاطلاع على الآداب الغربية والدراسات الادبية الاجنبية وأن يعرف لغته وأدبه والعلوم المساعدة كالألسنية والنقه وعلم الصوت وقواعد الشعر والعروض والبديع وقد يساق المقارن للنظر في مشكلات ترتبط بالفلسفة وعلم الاجتماع والأديان والاعراق فالحد الذي يفصل التيارات الفكرية والروحية والثقافية والدينية عن التيارات الأدبية الصرفة مبهم وغامض وغير واضح المعالم اذ هناك منطقة محرمة يجتاحها تارة علماء الفلسفة والاجتماع وطورا علماء الأدب المقارن ولا تزال محاولات تصنيف العلوم في مهدها وهي تعجز عن وضع حد لكل مادة وتعريف لكل مادة علمية .

لقد [illegible] جسلما [illegible] مسائل [illegible] أردنا [illegible] عدة المقارن ورصده، كما يجب عليه أن يكون [illegible] مسؤوليات كل من يريد أن [illegible] كليا إلى الدراسات المقارنة [illegible] أو [illegible] كان فيه الأدب المقارن يقتصر [illegible] ويكتفي [illegible] بالتلاحم الحاصل في عصرنا الحاضر بين الشعوب [illegible] جاهدة لتتعرف على بعضها البعض ولذا برز دور الأدب المقارن الذي [illegible] نزعة الانسانية (Humanisme) و [illegible] تراث [illegible] و [illegible] البشرية بأسرها .

حقل اختصاصه

لا بدّ لنا من أن نخرج من حقل الأدب المقارن ما اقحمه فيه بعض الذين فسروا بشكل خاص مفهوم هذا النوع الحديث من الدراسات :

أولا — ينبغي أن نخرج من حقل الأدب المقارن ما يجري من موازنات في داخل الأدب القومي الواحد ونعتبر أن اللغة هي عنصر هام في تحديد هوية الأدب القومي فالكاتب الذي ينتج في العربية مهما كان جنسه يكون أدبه عربيا والافريقي الذي ينتج في الفرنسية يعد أدبه فرنسيا واللبناني الذي ينتج في الانكليزية يعد أدبه انكليزيا وهكذا دواليك . يعتمد اذا الأدب المقارن على لغة الانتاج فالموازنات التالية :

— أقم الموازنة بين شاعرية طرفة وشاعرية أمرىء القيس .

— وازن بين اسلوب عمرو بن كلثوم وأسلوب الحارس ابن حلّزة في معلقتيهما .

— أي الفخرين ألصق بنفس صاحبه وأقرب إلى نفس القارىء فخر عمرو بن كلثوم أو فخر الحارس بن حلّزة .

— قابل بين الوصف في شعر امرىء القيس والوصف في شعر النابغة .

– أقم موازنة مفصلة بين حكمة طرفة وحكمة زهير .

– وازن بين شاعرية النابغة وشاعرية زهير مفصلا الكلام على خيال الرجلين .

– رثى المهلهل أخاه كليبا ورثت الخنساء أخاها صخرا . وازن بين الرثاثين من حيث الاسلوب والفن .

– أقم موازنة بين سياسة الأخطل وسياسة الفرزدق ، مبينا ما لجأا اليه من الاساليب، موضحا فن الرجلين في تلك الاساليب.

– قيل : « الفرزدق اذا هجا ارتفع وجرير اذا هجا لذع » . أوضح هذا القول مقيما الموازنة بين هجاء الشاعرين . . .

– والموازنات بين Racine و Corneille وبين Rousseau و Voltaire الخ . . . الخ . . .

كل هذه الموازنات لا تتعدى نطاق الأدب الواحد في حين أن ميدان الأدب المقارن مترامي الاطراف وهو يشتمل على دراسات تهتم بأدبين مختلفين لغة أو باكثر من أدبين .

ان الموازنات التي تقوم داخل أدب واحد ينطق بلغة واحدة هي من حقل اختصاص الادب القومي المحض وهي أقل خصبا وأضيق مجالا وأقل فائدة من الدراسات المقارنة وذلك لانها ، وان قامت على صلات تاريخية فهي لا تشرح الا تطور ملكات فكر الشاعر أو الكاتب بالنسبة لمن سبقه من أبناء قومه أو لغته .

ثانيا — لا تدخل في نطاق الأدب المقارن الموازنات التي تعقد بين كتاب ينتمون إلى آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تتيح لهم تبادل التأثير والتأثر الذين يولدان تفاعلا بينا وظاهرا وقد تلعب الصدفة دورا هاما في التشابه والتماثل .

بيّنا ما علينا أن نخرجه من نطاق الدراسات المقارنة وعلينا الآن أن نحدد بالضبط حقل نشاطات الأدب المقارن .

آ — يهتم الأدب المقارن بالصلات التي تقوم بين الآداب المختلفة لغة وبما نتج أو ينتج عن هذه الصلات التاريخية اما في حاضرها واما في ماضيها من تأثير وتأثر سواء عاد ذلك إلى علاقات شخصية قامت بين ادباء مرموقين ينتسبون إلى لغتين مختلفتين او عاد ذلك إلى المناهل المشتركة التي استقوا منها مادتهم الادبية وقد يؤدي الاشتراك في المناجح والمناهل إلى استعارات صريحة وإلى تأثرات خطيرة تتجلى في انتقال الافكار والمواضيع والنماذج الادبية من شعب إلى آخر كما أنه يؤدي إلى صبغ الأدب بلون الاثر المنقول عنه او بلون مختلف تماما عنه (التأثر العكسي) .

ب — وهو يهتم أيضا بالاغراض والمواضيع والمذاهب والتيارات والفنون الادبية والقصص المتداولة والاساطير الشائعة التي تنتقل من قوم إلى آخر ومن بلد إلى آخر . وقد تنشأ بفعل هذا التبادل صورة لشعب تنتقل إلى شعب آخر مجاور له أو

بعيد عنه وقد تتحور هذه الصورة وقد يلبسها الخيال حلة عجيبة وأخاذة أو يشوهها بفعل التعصب والجهل .

ج – يولي الأدب المقارن اهتمامه الخاص لأدب الرحلة . مما لا ريب فيه ان ادب الرحلة معين غزير يغترف منه معلومات قيمة كل من المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والنفس والفكر والسياسة والاقتصاد والاعراق والأجناس . . .

وبما ان بعض الرحالة الأدباء نوكروا سير اسفارهم ورووا عادة رحلتهم فمن حق المقارن الاهتمام بالرحلات التي تعود إلى حقل الأدب الجميل وقد بيّن المقارن أن القيام بالرحلات فن خاص أو بالاحرى مهنة لا تكتسب الا بالخبرة والتجربة وان الرحلة لا تعود بالخير العميم الا على هؤلاء الذين تمرسوا على فهم ما يجول في خاطر الغرباء ودفعوا عنهم عبء العادات الموروثة ونفضوا عنهم غبار التقاليد لكي يتقبلوا واقعا يختلف عن واقعهم ولكي يحللوا في رحلتهم الصورة الاجمالية أو الصور المتفرقة للشعوب التي قاموا بزيارتها فمن حق المقارن اتخاذ الرحلات كموضوع لدراسته ومن حقه أن يعلق على أدب الرحلة ويتحقق من صحة مراحلها ومنازلها ويتحرى عن المصادر المكتوبة التي قد يستعين بها بعض الرحالة أثناء قيامهم برحلتهم ومن حقه أن يوازن بين مختلف الشهادات التي أدت بها الرحالة عن شعب معين وأن يتابع التغيرات التي تطرأ على

صور البلاد الاجنبية التي وصفها الرحالة الذين اطلعوا على طرق عيش غريبة وانظمة وأفكار ومذاهب فلسفية ودينية تختلف عمّا الفوه في بلادهم وبما أن جمهور المطالعين طالع بشغف تلك الرحلات وتعرف على غرائب البلاد النائية وعجائبها وبما أن الرحلة أصبحت منهلا يستقي منه الأدب القومي ويتزود منه ليرى الشعوب الاخرى على حقيقتها العارية أو ليراها من خلال الحب والبغض والاكبار والازدراء فمن حق المقارن متابعة ما طرأ من تغيير وتبديل على صور تلك الشعوب .

قد اختصت المدرسة الفرنسية بظاهرة التأثير والتأثر التي تتجلى في الأدب وفي الرحلة وسعت في ربط ما غمض من مسائلها وحل ما استعصى من مشاكلها ودراسة هذه الظاهرة صعبة ومعقدة ولذا دعت هذه المدرسة احيانا إلى قصر الدراسات على رواج الكتّاب ونجاح روائعهم خارج قطرهم . وقد ضيقت هكذا المدرسة الفرنسية أحيانا حقل دراساتها المقارنة .

– ولذا حاولت الدول الاوروبية والاميركية أن توسع حقل الدراسات المقارنة وحثت المقارنين على تحليل أهم عوامل انتشار النزعة العالمية الكوزموبوليتية وسوف نعالج أهم الحقول التي حدّدها المقارنون وأهم الأبحاث التي تناولوها :

١ – دور الكتب والمطبوعات .

٢ – دور رجال الأدب .

٣ – التأثر والتأثير .

أ – الكاتب أو الشاعر وأدب غير قومه .
ب – قطر أو بلد في أدب غيره من البلدان .
ج – الأجناس أو الفنون الأدبية .
د – الابطال والنماذج البشرية .
ه – التيارات الفكرية .

اولا – الكتب والمطبوعات :

يبحث المقارن عن المصادر التي استقى منها الكاتب أو الشاعر أدبه وخاصة الاجنبية منها ويتأثر الكاتب أو الشاعر بقراءة الأدب الاجنبي في لغته الاصلية أو في ترجمة نقلته إلى لغة أخرى ويجب التمييز بين التأثر المباشر الاكيد ومجرد توارد الخواطر وتلاقي الافكار وقلّما ينتهي البحث حتّى عن التأثرات الصحفية livresque إلى نتائج حاسمة .

وقد نقتفي الاثر والتأثر في شعبين معينين بدراسة الروائع التي نقلت من لغة إلى لغة أخرى واذا أراد المقارن أن يعرف مدى اطلاع فرنسا الثورة والامبراطورية على Goethe فعليه أن يدرج في ثبت آثاره التي نقلت إلى الفرنسية وأن يتفحص أمانة ترجمتها ومن فوائد هذه التحريات أنها تدلنا أيضا على اذواق عصر معين وتبين اتجاهاته العامة فقد لوحظ ان شكسبير لم يلق رواجا لدى معاصريه الاوروبيين ولا لدى الاجيال التي

جاءت بعدهم بقدر ما لاقى في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. كما أن معرفة الروائع الاجنبية التي عني بها النقد الأدبي الوطني هي وسيلة لمتابعة تيارات التأثير والتأثر وتقدير مدى انتشار كل مؤلف في بلد أجنبي . ولكتب النقد والمجلات والصحف أهمية كبيرة في الكشف عن الوشائج القائمة بين انتاج أدبين قوميين مختلفين فينبغي الاطلاع عليها والافادة منها اذ تتحدث عادة عن الكتاب والشعراء الاجانب وتنشر أفكارهم وآراءهم ونظرياتهم الادبية والجمالية وفي اوروبا مجلات لا تعد ولا تحصى قد بذلت جهودا موفقة للبحث في الآداب الاجنبية وصلاتها بالأدب القومي ووجب على كل من يريد التعمق في الأدب المقارن أن يرجع إلى هذا النوع من المجلات وللروائع المترجمة والكتب المنقولة فوائد كثيرة وهي تعرف مدى تأثر الادباء الاغراب بالأدب القومي وهي اختبار دقيق لمعرفة شأو (fortune) الروائع ومنزلة أصحابها لدى الشعوب التي نقلتها ونرى الفرنسيين حين يدرسون شأو روائع كاتب أو شاعر في بلد اجنبي يخصصون ابحاثا لمترجميها وهذا ما قام به Baldensperger في عام ١٩٠٤ لدى دراسته كوت في فرنسا **Geothe en France** و Van Tieghem في عام ١٩١٧ لدى دراسته اوسيان في فرنسا (**Ossian en France**)

عدا ان الكاتب يتأثر حين يقرأ مختلف الآداب الاجنبية فانه يتأثر أيضا بالتماس المباشر اذا رحل إلى بلد اجنبي وكتب عنه

فتصبح رحلته معينا لا ينضب من المعلومات عن مناظر البلاد التي قام بزيارتها وعن عاداتها وتقاليدها وفي هذه الحالة يكب المقارن على دراسة البلاد المؤثرة وكيف تتجلى في ادب الرحالة...

نجهل الآن تفاصيل مسألة مدى معرفة شعب للغة أجنبية معينة. ان هذه المعرفة من صميم الأدب المقارن وخاصة ان المصطلحات والمفردات تحمل في طياتها معنى عميقاً يعبر عن تأثير قديم العهد قد يغيب عن الطرف ولكنه لن يغيب عن الذهن وقد يكون تفهم بعض المفردات وسيلة للانتقال من علم المعاني إلى التعرف على قيم حضارية معينة . ومن هذا القبيل المحاولات الجادة المثمرة التي يقوم بها الباحثون ليوضحوا بواسطة تفحص المفردات عملية التأثير والتأثر فمثل هذه المحاولات تنير لنا الطريق وتبين دون شك ما اذا كان هناك تأثير وتأثر ام لا .

وهذه الابحاث تصلح كأساس هام للدراسات المقارنة ويبدو ان الاستعارات اللغوية هي نقطة انطلاق تبين ما للغة على لغة وما لأدب على أدب وهي تصلح بالاضافة إلى ذلك كدلائل اجتماعية وقرائن حضارية في شؤون العلاقات الأدبية الدولية وقد درس مثلا الباحث الانكليزي (Mackenzie) العلاقات بين انكلترا وفرنسا بواسطة الالفاظ التي استعارها كل من القطرين من جاره . ومن هذا القبيل مثلا دراسة الدخيل في اللغة العربية الذي يبين درجة تأثر العرب بجيرانهم ويكشف عن الصلات التجارية

والسياسية والادارية والاجتماعية التي قامت بين العرب والشعوب القديمة التي جاورت تخومهم والمصنفات الخاصة بالدخيل على اللغة العربية كثيرة وضعها اما مستشرقون واما شرقيون نذكر منها :

1 – **Supplément aux dictionnaires arabes,** par R. Dozy Leyde 1818
المعروف بذيل المعاجم العربية للمستشرق الكبير دوزي

2 – **Die Aramaïschen fremdworter im arabischen** von Siegmond Fidenkel, Leiden 1886
كتاب الكلمات الآرامية الدخيلة على العربية . . .

3 – **Ueber die fremdworter im Koran,** von Dr Rudolf Dworak, Wien 1885
في الكلمات الدخيلة في القرآن . . .

4 – **De Vocabulis in antiquisarabum carminibus et in Corano peregrinis.** S. Frankel, Lugdini Batavorum 1880
في بعض ألفاظ الشعر العربي القديم والالفاظ الدخيلة في القرآن . . .

– كتاب المعرب من الكلام الاعجمي تأليف الشيخ الاجل الامام الاوحد العالم أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن خضر الجواليقي ، طبع في ليبسيك وفي مصر .

– كتاب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للشهاب الخفاجي طبع في مصر .

– رسالة في تعريب الألفاظ الفارسية لابن كمال باشا طبعت في مصر .

– كتاب المعرب من القرآن للشيخ حمزة فتح الله طبع في مصر .

– كتاب التقريب لأصول التعريب للشيخ طاهر بن صالح الجزائري طبع في مصر .

– كتاب الاشتقاق والتعريب لعبد الله القادر بن مصطفى المغربي ، طبع في مصر .

– نبذة في التعريب ، مقدمة لالياذة اوميروس ، ترجمة سليمان البستاني .

– وفي كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي فصل هام في ما وقع في القرآن بغير لغة العرب ، طبع في مصر .

– كتاب الألفاظ الفارسية المعربة لادي شير ، طبع في بيروت .

ولم يقتصر الذين يهتمون بالاستشراق على جمع المعرب والدخيل على العربية بل عمدوا كذلك إلى ذكر ما استعارته

اللغات القديمة ولغات الغرب من العربية والفارسية والتركية والمصنفات في هذا النوع كثيرة جدا نذكر بعضها :

1 – **Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe,** par H. Lammens.

ملاحظات على الالفاظ العربية والفارسية والتركية الدخيلة على الفرنسية .

2 – **Supplément du dictionnaire de la Langue française (Littré),** par Marcel Devie, Paris 1881

ذيل معجم ليتره . . .

3 – **Glossaire des mots espagnols, portugais dérivés de l'arabe.** Leyde 1869

مصنف الكلمات الاسبانية والبرتغالية المأخوذة عن العربية ...

4 – **Die Semitischen fremdwörter im Griechichen** von Dr. Heinrich Leroy, Berlin 1895.

الالفاظ السامية الدخيلة في اليونانية . .

5 – **Dictionnaire étymologique des mots de la langue française dérivés de l'arabe, du persan ou du turc,** pat A.P. Pihan, Paris 1866.

معجم الكلمات الافرنسية المأخوذة عن العربية والفارسية والتركية . . .

6 – **Quelques mots roumains d'origine arabe, turque, persane et hébraïque** par Georghe Popesco, Paris 1907

في بعض الكلمات الرومانية التي هي من أصل عربي أو تركي أو فارسي او عبري . . .

7 – **Etymologie Semitische,** Roma 1909

نبذة في اصول الالفاظ السامية كالعربية والسريانية التي دخلت في اللغات الايتالية والاسبانية والافرنسية والانكليزية واليونانية واللاطينية وبالعكس تأليف القس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني ، طبع روميا سنة ١٩٠٩ .

ان كلمات كثيرة شقت طريقها هكذا إلى اللغة العربية وانا نجدها في كتب الفلك والطب والنبات والرياضيات والطبيعيات والاحجار والتاريخ والجغرافية والسياسة وتدبير الملك ومصطلح الدواوين وهي تدل على مدى استيعاب اللغة العربية للغريب عنها والدخيل فيها كما أن شعوب البلاد التي فتحها العرب أو تاخمها استمدت من العربية ألفاظا كثيرة .

فالدخيل والاستعارات تبين لنا كيف ترشحت الصلات بين الشعوب وهي تكشف عن دور الشعوب المتحالفة في بناء صرح الحضارة العالمية كما انها تفضي من خلال الكلمات إلى تفحص عادات خاصة وأعراف شائعة في مواقع جغرافية معينة وإلى النظر في عملية تأثر شعب بتعابير لا مثيل لها في لغته انتقلت اليه ودخلت عليه واصبحت من صميم لغته .

ثانيا ـ رجال الأدب :

أخذنا بعين الاعتبار حتى الآن الكتب والروائع والمؤلفات دون ان نمعن النظر في مؤلفيها فالمؤلفات بالطبع هي وسيلة ناجعة لمعرفة العلاقات الأدبية التي قامت بين الأمم والشعوب ولكننا لا نستطيع أن نهمل دراسة تراجم حياة المؤلفين المشهورين والمغمورين الذين قاموا بدور فعّال في عملية التأثير والتأثر فاذا تكلمنا عن فولتير وهو من المشهورين وعن تأثره بانكلترا فلا بد من دراسة الفترة من حياته التي قضاها فيها ودرجة معرفته للغة الانكليزية (تلك المعرفة شبه السطحية التي تظهر من خلال بعض الرسائل التي كتبها بالانكليزية) واختلاطه بأوساط انكليزية معينة وتفسيره لخلق أهلها ولآدابهم وكيفية نقله صورتها إلى مواطنيه من المعاصرين له . وقد يقوم بدور فعّال كتّاب مغمورون لا يذكرهم تاريخ الادب الا لينوه بما فعلوه في سبيل تعريف أدب اجنبي والتصدي لعملية نشره وقد تزعم Emile Montégut حركة نشر الادب الانكليزي في فرنسا وقد سعى الانكليزي Henry Crabb Robinson في تنشيط الادب الالماني في انكلترا وقد أقامت الانكليزية Mary Clarke والالمانية Camille Selden في فرنسا فعرفتا الفرنسيين بأدب بلديهما الاصليين .

ان Montégut و Robinson و Clarke و Selden هم من الوسطاء في الادب اي من الاشخاص المغمورين الذين

آلوا على أنفسهم ان يعرفوا بلدهم للآخرين او ان ينشروا الثقافات الاجنبية على بني جنسهم . فقد يتيسر لادب من الآداب رجل اجنبي عنه يقوم ويدعو له ولسنا نعني بالدعاية هنا أن يكيل المدح جزافا لهذا الأدب أو ذاك بل نعني أن يذيعه ويوجه الانظار إلى اهميته ويشترط في الوسيط أن يكون ذا ثقافة واسعة وأسلوب قوي وحجج دامغة ليقنع أبناء قومه بوجوب الاطلاع على الآداب الاجنبية اما لتبنيها واما لمقاومتها .

قد يعمل الوسيط منفردا وقد ينتمي إلى ندوات حيث يجد اعوانا له يعملون متكافلين متضامنين على تشجيع الآداب الاجنبيـــة وقـــد روّجت بعض الندوات في فرنسا للادبين الانكليزي والالماني ودعت لهما وهنا يجب ألا ننسى ما لندوة مدام دي ستال في قصر كوبيه (Château de Coppet) من فضل ما بين ١٧٩٥ – ١٨٠١ في تشجيع نفوذ التيار الالماني في فرنسا ودعمه والدعوة للتأثر به .

قد يتصل المغترب لبعده عن وطنه بأوساط أجنبية ويتابع ما يجري في البلاد التي هاجر اليها ويكوّن مع مواطنين له ندوة تدعو أهل بلده الاصلي إلى دعم حركة نفوذ الأدب الاجنبي وتلقيح الادب القومي – بأنماط أدبية جديدة ونذكر على سبيل المثال الدور الذي قامت به الرابطة القلمية : ضمّت هذه الجمعية الأدبية في أوائل القرن العشرين نخبة من الادباء

والشعراء الذين يعيشون في المهجر وقد عرف أعضاؤها (الياس عطالله ، رشيد أيوب ، ندره حداد ، وديع باحوط ، نسيب عريضه ، جبران خليل جبران ، مخائيل نعيمه ، عبد المسيح حداد ، ايليا ابو ماضي ، . . .) بانفتاح فكرهم وبنظراتهم الدقيقة والممعنة التي كانت حصيلة اسفارهم الكثيرة وبسعة اطلاعهم على مختلف الآداب الاجنبية وخاصة الآداب الغربية وآداب الاميركتين التي اهتموا بدراستها في لغاتها الاصلية وقد نشروا كثيرا من الافكار الحديثة ونادوا بها فتأثر بها وطنهم لبنان وبعض الاقطار العربية وكانت الآداب الاجنبية مصدر افكارهم وكان لهم الفضل في بيان ما وصل اليه العالم المتحضر واليد الطولى في الدعوة للخروج على القديم وتقبل حركة التجديد في الادب العربي .

وكانت حركتهم الرائدة من العوامل المشجعة على تجديد الادب العربي وتلقيحه بالادب الغربي ولم يكن من البيئة ما يساعد على النهوض فكان لا بدّ من نور ينير الاذهان ويرفعها إلى مستوى المجاري الفكرية والادبية العالمية وقد جاء هذا القبس من الرابطة القلمية وأنار لبنان خاصة والعالم العربي عامة .

تقوم بعض البلاد بكاملها بدور الوسيط وهذه حال سويسرا ولبنان وقد ظهر في سويسرا دعاة أمثال Bonstetten و Sismondi و Rod حبذوا فكرة الخروج من نطاق الادب

الواحد والاهتمام بالآداب الاجنبية فموقع سويسرا ولبنان الجغرافي يسهل عليهما الانفتاح على العالم الخارجي وهذا ما حدث للبنان وما يحدث له في كل يوم . ان بذور التجديد في الادب الحديث نبتت في لبنان الذي قام ولا يزال يقوم بدور فعّال في اخراج الادب العربي من انطوائه وعزلته وان ما تقوم به سويسرا في سبيل تفاعل الادب الفرنسي والالماني والايطالي... يقوم به لبنان الذي يتقبل الثقافات الغربية ويطلع العالم العربي عليها .

عدا الدعاة الذين يعملون منفردين او مجتمعين في ندوات أدبية وعدا بعض البلاد التي تقوم بدور فعّال في نشر الآداب الاجنبية علينـــا أن نذكر أهمية الذين قاموا بترجمة الآثار الاجنبية .

كنا قد تكلمنا من قبل عن الآثار المترجمة وعن أهميتها وذلك أثناء حديثنا عن الكتب والمنشورات فنذكر الان ما للمترجمين من أثر في النزعة العالمية الكوزموبوليتية . لا ينقل المترجمون أول أثر أجنبي يعثرون عليه بل ينقلون الاثر الادبي الذي يشعرون في قرارة نفوسهم بميل اليه وهذا الميل هو الذي يتيح للمترجم أن يحقق ذاته وهذا ما دفع مثلا Le Tourneur إلى ترجمة آثار وروائع Young و Ossian و Shekespeare ولا يهمنا دراسة دور المترجمين المشهورين ذوي المكانة الادبية

الممتازة أمثال Gide وحافظ ابراهيم وحسن الزيات الذين اشتهروا بانتاجهم الادبي اكثر مما اشتهروا بترجمة آثار غيرهم بل يهمنا ذكر هؤلاء المترجمين المغمورين ومن منّا يعرف الكثير عن خليفة محمود وفرح انطون والياس فيّاض ونقولا الحداد وعن الذين عملوا مع رفاعة رافع الطهطاوي في مصر على خلق مدرسة الالسن وذلك في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ؟ . . . أراد أعضاء تلك المدرسة نقل العلوم والفنون والثقافة والقانون والآداب الاجنبية إلى اللغة العربية رغبة منهم في تقديم عصارات الفكر العالمي إلى العرب الذين كانوا أحوج الناس اليها . ان اللغتين الافرنسية والانكليزية نالتا أوفر حظ من اهتمام هؤلاء المترجمين ولكن حقل الترجمة اتسع وشمل بعد حين اللغات الاوروبية والآسيوية كالالمانية والايطالية والفارسية والهندية والصينية . . .

وقد اطلع العالم العربي على الطب والفنون العسكرية والهندسة والبيطرة وعلوم الطبيعة والزراعة ولم يكن بوجه عام للآداب ما كان للعلوم من حظوة في عين المترجمين ولم يكن هنالك من الاهتمام ما يدعو إلى الاقبال على نقلها ولذا جاءت ترجمة الروائع الادبية متأخرة عن حقائق العلم ولكننا لن نبخس هؤلاء حقهم اذ جلبوا إلى العالم العربي محصولا ضخما من الانتاج الايجابي الذي ساعد العرب في نهضتهم الجديدة وعندما قاموا

بترجمة اعداد كبيرة من الروايات الاجنبية زرعوا بذور القصة العربية فلم تذهب جهودهم سدى .

ثالثا : التأثر والتأثير :

ان تفاعل الآداب وانتقال التأثر والتأثير يتمان كما رأينا عن طريق الكتب والمطبوعات وعن طريق رجال الادب المعروفين او المغمورين الذين يعملون منفردين او مجتمعين ولكن هناك حقولا تظهر فيها التأثرات والتأثيرات بشكل جلي وواضح ولذا افردنا لها الفصول التالية لنبين ان الانعزال يؤدي إلى جمود الادب وتصلبه وتحجّره في حين ان التبادل يقوي اواصر التفاهم والاخاء الانساني ويدعم العلاقات الادبية التي تقوم بين مختلف الامم واللغات .

آ) — الكاتب أو الشاعر وأدب غير قومه

اهتّم المقارنون الفرنسيون ومن ينتمون اليهم بهذا النوع من الدراسات وقد أدّت الابحاث في هذا الحقل إلى نتائج ايجابية وقد يبتسم المقارن عندما يكتشف دراسات تفصيلية تتناول تأثير شكسبير في بلاد الصرب وراسين في بلاد البلغار وان دلت هذه الدراسات على شيء فهي تدل على أن امكانيات المواضيع الرئيسية قد استنزفت ولم يبق لباحثي المستقبل سوى مواضيع جانبية وثانوية ونثبت هنا ما أخذه الفرنسيون عامة عن آداب

غيرهم وما قدموه بدورهم لسواهم من الشعوب ولا يعيب الفرنسيون أنهم أخذوا عن غيرهم ولا ينتقص من فضل سواهم لانهم أخذوا عنهم (١) .

اولا – أثر الأدباء الفرنسيين خارج فرنسا :

يصعب علينا احصاء الابحاث التي درست شأو الأدباء الفرنسيين خارج فرنسا ولذا سنذكر البعض منها مبوبة حسب العصور والتسلسل الزمني :

١ – القرن السادس عشر :

يتبلور التأثير الفرنسي بفعل Rabelais و Ronsard و Montaigne وقد أعارت الدراسات المقارنة أذنا صاغية لهؤلاء الثلاثة وبينت مدى تأثيرهم في البلاد الاوروبية المجاورة لفرنسا .

٢ – القرن السابع عشر :

عرفت فرنسا عصرها الذهبي واستمدت أوروبا المعرفة منها

---

(١) لا نستقي معظم أمثلتنا من الأدب الفرنسي إلا لضرورات منهجية :
١ – هيمنت الروح الفرنسية على جزء كبير من أوروبا وسيطر الانتاج الفرنسي الأدبي على العالم الغربي الذي اعتبر فرنسا كقبلة وكمحور .
٢ – نشطت الدراسات المقارنة في الجامعات الفرنسية ولذا نستطيع أن نستمد منها بعض الأمثلة الحسية .

وخضعت كليا للانتاج الفرنسي ووقعت تحت تأثير Molière و Boileau و Fénelon وقــد تركت الثقافة الفرنسية في أوروبا أبلغ الأثر بفضل Fénelon وكتابه Télémaque الذي ترجم إلى اكثر اللغات الاوروبية وقد تسربت تعاليم Fénelon الدينية ليس فقط إلى البلاد الكاثوليكية بل دخلت ايضا إلى البــلاد البروتستنتية حيث استمد منها قوته الروحي كثير من المبشرين كمــا أن افكار Fénelon السياسية المتحررة انتشرت في كل أقطار أوروبا .

٣ ــ القرن الثامن عشر :

اصبحت فرنسا في القرن الثامن عشر محط أنظار أوروبا وكان فلاسفتها لا يكتبون للفرنسيين فقط بل لاوروبا بكاملها وقد ذاع صيت مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وقد بحث في تأثيرهم على أوروبا مقارنون اكفاء .

٤ ــ العصر الرومانتيكي :

أثرت الرومانتيكية في فرنسا التي تلقت من هذه الحركة اكثر مما اعطت ولئن كانت المانيا وانكلترا قد صبغتا الادب الفرنسي بهذه الصبغة الجديدة وتركتا فيه هذا الاثر الذي رأيناه فان الادب الفرنسي بدوره قد أثر في بعث الحركة الرومانتيكية الايطالية التي استمدت من فرنسا اكثر مقوماتها وقد درس الادب المقارن

اثر Mme de Staël و Chateaubriand و Lamartine في ايطاليا .

٥ — ما بعد الرومانتيكية :

ما لبثت فرنسا ان استعادت نفوذها وأخذ أدباؤها أمثال Flaubert و Baudelaire و Zola يهيمنون على أوروبا واصبح الادب الفرنسي يغزو كل ميادين الحياة الاوروبية الثقافية والحضارية ونحن إذا رحنا نتلمس مظاهر هذا التأثير نرى ان الدراسات لم تتناوله الا على نطاق ضيّق اذ جاءت المدارس والحركات الادبية كمؤثر قوي فعّال في تطوير الادب الفرنسي والاوروبي معا من حيث التفكير والمنهج والاغراض والاساليب فانصرف المقارنون لدراسة عامل تفاعل الآداب المشترك واهملوا دراسته في فرنسا وحدها .

يبين لنا هذا العرض السريع حيوية الابحاث التي عالجت أثر الادباء الفرنسيين خارج فرنسا .

ثانيا — تأثير الادباء الاجانب في فرنسا :

لقد أعار المقارنون اهتماما بالغا للتأثير الانكليزي والالماني في فرنسا وقد أهملوا بعض الشيء دراسة التأثيرات الايطالية والاسبانية والروسية وذلك لان المانيا وانكلترا طبعتا فرنسا

بطابعهما الخاص ولان الفرنسي المثقف يقرأ Hamlet و Werther في لغتيهما الاصليتين وقد يصعب على هذا المثقف بالذات مطالعة آثار الكتّاب البرتغاليين أو الروس . لقد سعت مؤخرا المدرسة الايطالية المقارنة في تلافي بعض النقص وبينت خاصة ما لايطاليا على فرنسا في عصر النهضة والانبعاث .

١ — التأثير الانكليزي :

اهتمت الدراسات المقارنة بتأثير شكسبير في فرنسا ولكن اهتمامها بهذه الشخصية الفذة قد انساها الالتفات إلى مجمل التأثير الانكليزي في فرنسا ولا شك أن مؤلف Van Tieghem ودراسات Baldensperger ترسم الخطوط العريضة والمراحل الهامة لذلك التأثير من عصر فولتير لغاية القرن العشرين ولكن الدراسات المفصلة تنقصنا في هذا الحقل ونفتقر أيضا إلى دراسات تفصيلية عن العصر الكلاسيكي الذي أعارت فيه فرنسا انكلترا اكثر مما استمدت منها وقد يبلغ منّا العجب أشده عندما يغفل الباحثون دراسة تأثير Richardson في فرنسا وقد تتلمذ على يده جيل من الكتّاب الفرنسيين وقد ترجم مؤلفاته أحد رجال الدين الفرنسيين L'Abbé Prévost وقرأه روسو وأشاد بذكره ديدرو .

وقد أثر في فرنسا أشد التأثير أئمة الرومانتيكية الانكليز أي

Ossian و Walter Scott و Byron وقد اهتمّ بهم المقارنون الفرنسيون وتتبع الانكليز أثر كاتبيهم Thomas Moore و Carlyle وبينوا فضلهما على الحركة الادبية الفرنسية . وقد تلقت انكلترا من فرنسا بعد عام ١٨٦٠ المذاهب الادبية ولم تدرس حتّى الان هذه الحركة العكسية وقامت الان محاولات جدية لتقييم مدى تأثير Patmore و Wilde و Joyce و Shaw في كبار كتّاب عصرنا في فرنسا أمثال Gide و Valery Larbaud و Claudel .

٢ ــ التأثير الالماني :

يتقن اكثر المقارنين الافرنسيين اللغة الالمانية ولذا جاءت باكورة ابحاثهم تركّزُ على التأثير الالماني عامة وعلى عدد من ائمة الادب الالماني خاصة وتتبلور أهم مظاهر هذا التأثير في Heine و Goethe و Herder و Schiller و Nietzsche وقد توصل الفرنسيون في دراساتهم إلى نتائج ملموسة وهم يأملون قريبا كشف مقدار ما عليهم لـ Novalis و Hoffmann .

٣ ــ التأثير الايطالي :

يعجب الباحث من عدم وجود مؤلف يعالج جملة مشكلة تأثير الأدب الايطالي في فرنسا وكان التفاعل بين اللغة الايطالية والفرنسية قائما ولا غرو فان اللغة الفرنسية والايطالية من أصل واحد وان صلة ايطاليا بفرنسا كانت صلة مباشرة قائمة بين

شعبين ينحدران من أصل واحد وقد تبادلا المنافع والتجارة وقامت بينهما الحروب والحملات العسكرية ومكانة ايطاليا في عصر النهضة حين ازدادت مقدرتها العلمية والادبية جعلها تؤثر في فرنسا ولما اتسع النفوذ الفرنسي عادت فرنسا وأثرت بدورها في ايطاليا وقد توثقت الصلات بين البلدين عبر التاريخ ومعنى هذا ان كلا من الشعبين كان على معرفة تامة بأمور جاره وعلى ارتباط وثيق بالآخر وقد استمر هذا التفاعل نشيطا لا يفتر مما أدى إلى تراث لاتيني قد ساهم الشعبان الأخوان في انشائه وتتلخص أهم مظاهر تأثير الادب الايطالي في فرنسا بدراسات مقارنة اهتمت بـ Dante و Pétrarque و L'Arioste و Le Tasse و Léopardi و Carducci و Pirandello وهناك أديبان ايطاليان كبيران ينتظران من يعالج أثرهما على فرنسا هما Goldoni و Silvio Pellico

٤ ـ التأثير الاسباني :

ادخلت اسبانيا على الادب الفرنسي عددا لا يستهان به من الاجناس الادبية التي فعلت فعلها في الحركة الكلاسيكية وما قبل الكلاسيكية وقد وضع المقارنون أبحاثا قيّمة تعالج تأثير الادب الاسباني في فرنسا وأولوا جلّ اهتمامهم إلى كتاب دون كيخوتي ولكنهم اهملوا في ابحاثهم بعض الادباء الاسبان الذين طبعوا لفترة معينة الادب الفرنسي بطابعهم نذكر منهم Lope de Vega و Calderon .

٥ ـ التأثير الروسي :

احتك الأدب الروسي في أول أمره بالأدب الفرنسي واقتبس عنه الكثير ولكن التأثير الروسي على فرنسا (وهو موضوع بحثنا) حديث العهد ولذا لم يدرس الا على نطاق ضيق وقد ظهرت بعض الابحاث الفرنسية التي عالجت تأثير Pouchkine و Dostoievski و Tolstoï

ونتساءل في الختام : هل يجوز عوضا عن دراسة التأثر والتأثير كشقين أو كحدين أن ندرسهما كجملة عصبية واحدة أي ان نعتبر كمحور دراستنا كاتبا معروفا ونتفحص مدى تأثره ببلد أجنبي ومدى تأثيره في ذلك البلد الاجنبي ؟ يجوز ذلك وقد قامت بعض الدراسات المقارنة على هذا الاساس نذكر منها :

— Ch. Dejob, Madame de Staël et l'Italie (1899)
— N. Serban, Leopardi et la France (1913)
— Fl. Delattre, Dickens et la France (1927)
— E. Joliat, Smollett et la France (1935)
— H. Peyre, Shelley et la France (1935)

ان دراسة التأثر والتأثير عمل دقيق يقتضي جهوداً جبّارة وله قواعده الخاصة :

ـ الحذر قبل الجزم بوجود تأثير أو تأثر .

– اختيار ادباء يمثلون خصائص أدب قومي ثم التعرف على مدى تأثرهم بأدب اجنبي وتأثيرهم فيه .

– الابتعاد عن العموميات : يمثل شكسبير العبقرية الانكليزية ، غوته من نتاج الروح الالمانية الخ . . .

– التقيد بقواعد الزمان .

ترمي هذه الدراسات إلى الابتعا د عن التعصب اذ يأخذ الشعب عن الشعب والقوم عن القوم والأمة عن الامة وهذه سنة الحياة . واذا كان ثمة فخر للبلد المعطي فلا عار على البلد الآخذ وانما له فخر الفهم والهضم والاستيعاب والاضافة فالانسانية وحدة متفاعلة وثقافتها كل لا يتجزأ ويضيف اللاحق إلى ما تركه السابق في كل العصور وكل الازمنة .

ب) – قطر أو بلد في أدب غيره من البلدان

ترسخ في عقلية شعب معلومات عن شعب آخر قد تكون صحيحة أو خاطئة وتظهر هذه المعلومات في الادب الذي يعتبر سجلا صادقا لشعور شعب معين وصورة ثابتة للعلاقات التي تربطه بغيره وقد تتجلى هذه الصورة في أدب الرحلة وفي مجمل الانتاج الادبي فتظهر فيهما نماذج بشرية غريبة وألوان محلية (couleur locale) غير مألوفة .

ولا ترمي هذه الدراسات إلى تحليل ملامح بلد غريب كما

يصوره اديب واحد في انتاجه (صورة انكلترا في مؤلفات فولتير مثلا) فحسب ، بل هي ترمي ايضا إلى تصوير بلد بكامله كما ظهر في أدب أجنبي (صورة انكلترا في الادب الفرنسي مثلا) . ونريد هنا متابعة صور البلاد الاجنبية كما وردت في الادب الفرنسي :

١ ــ صورة انكلترا في الادب الفرنسي :

قصد انكلترا في مطلع القرن الثامن عشر معظم الادباء الفرنسيين وأقاموا فيها واعجبوا بتشريعها وحدائقها وأخذوا يؤقلمون في بلدهم شكسبير فظهرت في القصة والمسرح نماذج بشرية انكليزية ويعتقد المقارن Pierre Reboul انه قد ارتسم في مخيلة الفرنسيين ما بين عام ١٨١٥ ــ ١٨٣٠ نموذج بشري عن الشعب الانكليزي قد شاع في الادب الفرنسي ويتألف هذا النموذج من خبث ودهاء يمتزجان بالواقعية ومن تعلق بالمنزل وبوسائل الراحة والترفيه ومن حب للحريات العامة ومن روح امبريالية متغطرسة وسوف تصبح هذه الصفات من مقومات العنصر البريطاني ودعائمه . وسوف تتجلى على شكلها هذا في معظم انتاج الادب الفرنسي .

٢ ــ صورة المانيا في الادب الفرنسي :

أنّى لفرنسا الوسائل للتعرف على أمة المانية موزعة على مئات

الممالك والامارات والدوقيات وأنّى لها الوسائل لمتابعة عوامل النهضة الادبية في تلك الدويلات ؟ ولذا لم تعرف فرنسا المانيا الا من خلال مؤلف مدام « دي ستال » الذي نقل إلى الكتّاب الفرنسيين صورة باهتة عن المانيا وعن روحها الرومانتيكية ولما سعت المانيا في توحيد أجزائها وفي التوسع والامتداد تفتحت بعض الاعين غير ان معظم كتّاب فرنسا كانوا لا يميزون بين المانيا المشجعة للعلم والادب والتي تتبلور صورتها في Wagner وبين جرمانيا عسكرية واستبدادية تختلف تماما عن الاولى والتي تتبلور صورتها في Bismarck وما ز الت هاتان الصورتان تراودان مخيلة الكتّاب والشعراء الفرنسيين حتى إلى ما بعد انكسار فرنسا في عام ١٨٧٠ . وقد غيرت الاحداث السياسية هاتين الصورتين بعض التغيير ولكن الادب الفرنسي يتغنى حتى الان بالدكتور الالماني العلاّمة وبالشاعر الرومانتيكي وبالموسيقار الجرماني الموهوب . . .

٣ ــ صورة بعض البلاد الاخرى في الادب الفرنسي :

احتلت انكلترا والمانيا منزلة مرموقة في الانتاج الادبي الفرنسي وفي الدراسات المقارنة ولكن ايطاليا لم تحظ بالمنزلة التي تستحقها ولم تكشف الابحاث حتى الآن عن صورتها في الادب الفرنسي وقد التفت بعض المقارنين إلى دراسة صورة اسبانيا في الادب الفرنسي وصورة الامبراطورية العثمانية

والصين وروسيا فتوالي الاحداث وتتابعها غيرا الصور الاساسية التي كانت قد انعكست في الادب الفرنسي .

يتبين لنا من بعض نماذج الشعوب الاجنبية التي نستشفها من خلال الادب الفرنسي أن البلد الاجنبي لا يظهر دوما في حقيقته العارية فهناك تيارات خفية وظاهرة تتجاذبه وهناك آثار أدبية ترسم ملامحه الرئيسية وأخرى تبرز ملامحه العابرة فهل الامة الالمانية تتمثل في Wagner أم في Bismark ؟ وقد يكون اصل الصورة ونقطة انطلاقها عرضيا وغريبا عن الادب كحب الشعب للوزن والسجع والقافية (Les Portugais sont gais) وقد تكون هذه الصورة مبسطة أو نسخة طبق الاصل (stéréotypé) عما ردَّدهُ الآخرون او شبيهة بالخرافة (mythe) لا يدعمها الواقع او الحقيقة .

وبما ان المقارن يستخرج هذه الصورة من الاحداث السياسية التي تجري في البلد الذي يدرسه ومن صحافته ومطبوعاته نراه يبتعد احيانا عن الادب الصرف ليخوض ميادين ليست من اختصاصه ولذا نثبت هنا أهم القواعد التي تتبع في معالجة مواضيع كهذه :

١) دراسة روائع الادباء الذين كتبوا عن ذلك البلد واهمال قدر المستطاع الانتاج الصحفي الذي لا يمت بصلة إلى الادب

الرفيع لئلا يحيد المقارن عن جادة الادب ويتحول إلى مؤرخ أحداث سياسية .

٢) دراسة تاريخ حياة الأدباء الذين صوروا ذلك البلد والبحث عما اذا كانوا قد عرفوه بالزيارة والمشاهدة والرحلة المباشرة أم بواسطة المصادر المكتوبة ثم بيان مدى انطباق صورة البلد على حقيقته وفي هذه الحالة تدرس حياة الكتّاب ويوضح مدى صلاتهم بالبلد الاجنبي وكيفية استقائهم معلوماتهم عنه ودرجة صدقها .

٣) من المستحسن أن يقوم المقارن بزيارة البلد الاجنبي وأن يسير على خطى الكتّاب الذين رحلوا اليه .

٤) من المستحسن أيضا أن يكون الباحث ضليعا في العلاقات الدولية واسع الاطلاع ، دقيق التحليل ليتسنى له قراءة النصوص ومقارنتها واستقراء الحقيقة بغية اظهار المفارقات التي تقوم بين الواقع والتحوير الادبي وقد تعيش في ضمائر الجماعات خرافات (mythes) تؤدي إلى تحديد ملامح ما يسمى « رجل الشارع » الانكليزي أو الرجل العادي الاسباني أو النموذج الانساني الجرماني .

بالطبع ان تحليل صورة بلد ما في أدب غيره من البلدان صعب وخاصة عندما تطغي الاشاعات على الحقيقة وتغزو

الخرافات عالم الواقع وعندما يصعب تحديد مصدر الصورة العامة التي رسخت بواسطة الأدب في أذهان الجماعة . فمن هو المسؤول عن صورة الانكليزي الجنتلمان وعن صورة الروسي المتصوف ؟ سعت الدراسات المقارنة في تجديد وسائلها للخوض في هذا النوع من الموضوعات ولازالة الغشاوة التي حجبت الحقيقة عن الأعين .

ج) ـ الأجناس أو الفنون الأدبية .

نقصد بالاجناس ما نسميه بالعربية فنون الأدب وأنواعه وأغراضه . وقد نطلق الان عليها تسمية الاجناس الادبية لأن الناقد الكبير Brunetière صاحب تطور الاجناس (**L'évolution des genres**) هو الذي أوحى متأثرا بنظريات Darwin بأن الفنون الادبية أو لنقل الاجناس قابلة للنشؤ والارتقاء والازدهار والفناء تماما كالأجناس الحيوانية .

حاول Brunetière أن يدرس الاجناس الادبية من ملحمة ومسرحية وقصة كما تدرس الفصائل الحيّة واقتنع تمام الاقتناع بأن نظرية التطور جديرة بأن تطبق في ا لأدب وأنها ستؤدي إلى نتائج ايجابية ومجدية .

درس برونتيير العلاقات القائمة بين مختلف الاجناس الادبية من النواحي التاريخية والفنية والعلمية وهو يقصد بالعلاقات

التاريخية بيان ما اذا كانت الاجناس تظهر إلى الوجود بعضها اثر البعض الآخر نتيجة الصدفة او نتيجة توالدها كما يحدث ذلك في الاجناس الحيوانية . ويقصد بالعلاقات الفنية ، الصلات التي تقوم بين القوالب الفنية المختلفة التي تتجلى بواسطتها الاجناس وفضل الاجناس اللاحقة على السابقة فيرى مثلا أن المسرحية أرقى نوعا من الملحمة وأن القصة بمعناها الحديث أرقى من الحكاية الشعبية ويريد بالعلاقات العلمية القوانين التي تتحكم في علاقات هذه الاجناس المشتركة والتي تتحكم في كل منها على حدة وجودا ونشوءاً وتطورا واندثاراً .

وقد أثار برونتيير عدة اسئلة تنسجم في سلسلة منطقية تبين كيف يتم التطور في الاجناس الادبية تماما كما يحدث في الاجناس الحيّة فيقول : كيف تتولد الاجناس الادبية ؟ ما هي الظروف الزمانية والمكانية التي تمهد لوجودها ؟ كيف تتميز وتختلف وتتشابه فيما بينها ؟ كيف تنمو على نحو ما تنمو عليه الكائنات الحيّة؟ كيف تقصي وتبعد عنها كل ما يضر بجوهرها وكيف تجتذب اليها كل ما ينفعها ويغذيها ؟ كيف تندثر وما هي عوارض الانحلال التي تعتريها ؟ كيف تنبعث بقاياها لتعيد الكرّة وتكوّن عناصر نوع او جنس جديد ؟ .

ولا شك في أن أهمية هذه النظرية تدفع الباحث إلى ضرورة دراسة الآداب الاجنبية استكمالا لتاريخ الادب القومي ولا غرو

فقد كان برونتيير نفسه من حيث لا يدري من أعظم الدعاة إلى الأدب المقارن عامة ومن أدق من عملوا في حقل الاجناس الادبية وتطورها خاصة وقد قدم هو ومن خلفه للمقارنين منهجية تتلخص في النقاط التالية :

١ ـ على المقارن ان يحدد الجنس الادبي الذي يدرسه وخاصة اذا كان هذا يتبع قواعد فنية صارمة وقد يسهل تحديده كلما اتضحت قواعده الفنية فيلتزم مثلا مؤلف المسرحيات بطريقة معينة وبقوالب فنية خاصة تختلف عن تلك التي يتبعها الروائي وقد يصعب تحديد الجنس كلما قلت وغمضت قواعده الفنية وكان ذا صبغة يضفيها عليه لون من ألوان العاطفة وقد تطرأ تطورات على قواعد الاجناس الادبية فكانت الملحمة مثلا في أول أمرها قصرا على الشعر ثم صارت مزيجا من الشعر والنثر وكانت المسرحية أيضا في نشأتها شعرا فصارت تؤلف شعرا ونثرا حتى أنه طغا نثر ها في نهاية الامر على شعرها ولماذا لم يعد المأسويون يكتبو ن مآسيهم شعرا ولماذا خرج القصصيون على قوالب القصة التقليدية واتبعوا قواعد مستوردة؟إن هدف المقارن دراسة هذه التغيرات وقد جاء أكثرها نتيجة لتأثير أدب في أدب آخر .

يجب دراسة الاجناس من الناحية التاريخية وتتبع تطورها وتحليل العوامل التي غيرتها وحولتها وتَبينُ لنا الطريقة التاريخية

أسباب انتشار القصة التاريخية في كل اوروبا في مطلع القرن التاسع عشر وأسباب الانصراف عنها في حوالي منتصف ذلك القرن ولهذا النوع من الدراسات قيمة كبيرة لا سيما في أدبنا الحديث المعاصر الذي استمد اكثر اجناسه من الآداب الاوروبية فنتساءل :

– كيف نشأت القصة والمسرحية ، في الادب العربي الحديث وما هي الاسباب التاريخية التي توافرت لايجاد هذين الجنسين الجديدين ؟

– ما هي المراحل التاريخية التي اجتازتها القصة في الآداب الاوروبية ومتى ظهر تأثيرها في العالم العربي ؟

ويندرج تحت هذا الباب ايضا تفحص الاجناس القديمة وتطورها عبر العصور كدراسة نشأة القصص على لسان الحيوان (fable) ودور ابن المقفع في ادخال هذا الجنس في الأدب العربي ومدى تأثر أدبنا به ثم كيف انطلق هذا الجنس من الادب العربي ليؤثر من جديد في الادب الفارسي الحديث . . . الخ . .

٢ – على المقارن أن يحدد درجة تقيد الكاتب أو الشاعر بالجنس الادبي الذي يعالجه فيبين اذا كان المؤلف (الكاتب أو الشاعر) يلتزم بمذهب أدبي بعينه أو اذا كان حرا في اختياره وعليه أن يظهر مدى تصرف كاتبه في قواعد المدرسة الادبية التي ينتمي اليها وأن يعالج الاسباب التي جعلته يحيد عن النموذج

الذي أراد اتباعه . وينبغي للوقوف على هذه الاسباب أن تدرس حياة المؤلف وانتاجه وثقافته ومجتمعه وان تصرف الجهود إلى دراسة الشعوب وتطورها وما تفرضه مجتمعاتها على الادب من تقاليد وأجناس أدبية وما تتطلبه منه من أغراض .

٣ـ على المقارن أن يقيم الأدلة على تأثر المؤلف بالجنس الادبي الذي عالجه وقد يكون ذلك سهل المنال إذا كان المؤلف يحاكي من سبقه من ابناء جلدته أو اذا صرح بأنه يقلد الاغراب كما فعل الشاعر فكتور هوغو (Hugo) الذي اعلن على الملأ انه يحاكي في مسرحه شكسبير وقد يصعب اقامة هذا الدليل ونتساءل حتى اليوم هل حاكى أحمد شوقي شكسبير في نظام مسرحيته مصرع كليوباترا (١٩٢٩) :

لاقت نظريات برونتيير آذانا صاغية لا سيما بين طلابه الذين وجهوا نشاطهم صوب دراسة الاجناس وتطورها ونشروا أبحاثهم الدقيقة في رسائل نيلهم الدكتوراه فكانت هذه الرسائل فاتحة سلسلة جليلة من الكتب التي أفادت الدراسات المقارنة ، غير أن كل هذه الابحاث لا تتعدى في حقيقة الامر مجرد عرض للآداب والعصور دون ابراز مظاهر التأثر والتأثير وأنى للاجناس الادبية أن تتطور إلى أجناس أخرى كالفصائل الحيوانية بموجب مبادىء داروين وهل هي تخضع لتطور حتمي كما هو الحال في الفصائل الحيوانية ؟

اثمرت على كل حال جهود برونتيير في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وقد يصعب علينا في الوقت الحاضر تحديد الجنس اذ برزت مكانه كلمة تقنية (Technique) فلا يتقيد القصصي والشاعر والاديب المسرحي بنظريات الجنس وأعرافه بل يخضعون لقواعد مبهمة سوف تسيطر عليها بدورها عملية التقعيد ولذا سوف تنبعث قضايا الاجناس من جديد وسوف تطرح على ضوء التقينة مشاكل خاصة بها .

د) ــ الابطال والنماذج البشرية

يولي الباحثون اهتماما كبيرا للابطال والنماذج الانسانية (Types) وتحتاج معالجة هذا النوع من المواضيع إلى سعة في العلم والاطلاع والثقافة وإلى براعة في التحليل والمقارنة والاستنباط وقد خلّف كل أدب بطلا أو نموذجا انسانيا أمثال عنترة و Faust و Don Juan وقد اعتبر الفرنسي Giraudoux أنه يعالج مسرحية Amphitryon بعد أن عالجها قبله سبعة وثلاثون اماما من اصحاب القرطاس والقلم فما هو مصدر هؤلاء الابطال والنماذج الانسانية الذين نجدهم في كل الآداب العالمية والذين يغيرون ملامحهم حسب المكان والزمان ؟ جاءنا هؤلاء الابطال من مصادر خمسة هامة :

١) التاريخ الاسطوري والخرافي ،

٢) التوراة والكتب المقدسة ،

٣) التقاليد القومية ،

٤) التاريخ القديم والحديث ،

٥) الحياة اليومية .

اولا – التاريخ الاسطوري والخرافي :

يعود عدد كبير من هؤلاء الابطال إلى عصور سحيقة ويلعب برومتاوس (Prométhée) البطل العملاق دورا رئيسيا في الأدب القديم أو ليس هو الذي خان الآلهة حبا بالبشر ؟ وكلنا يعلم أن أدباء معروفين ومشهورين قد عالجوا بالرمز في كافة عصور الادب ابطال الميتولوجيا الذين قيل عنهم انهم عاشوا في اليونان نذكر منهم تيزويوس ، هرقولس ، هيلينا ، افيجينيا... وقد نلحق بهم ابطال روما وأبطال العصور الوسطى الذين احتلوا مكانة رفيعة في أدب فرنسا وانكلترا نخص بالذكر منهم الملك أرتوروس (Arthur) ورفاقه فرسان المائدة المستديرة وقد انبثق عن هذه الاسطورة خرافة جانبية أدت إلى تجسيم الحب الذي يتغلب على الصعاب وينتصر حتى على الموت في بطليه : تريستان وايزولت .

ثانيا – التوراة والكتب المقدسة :

لا يبرز هذا النوع من الابطال إلى الوجود الا في العصور التي يضعف فيها الايمان والتوراة معين لا ينضب قد اغترف

منه لقابيله Byron و Hugo ولوصف شياطينه Milton و Vigny و Carducci و Gide وغيرهم .

وقد يتصرف الكتاب في خلق شخصيات مؤلفاتهم ويبتعدون في رسم ملامحها عن مصادرها . وقد ينعتون بالهرطقة وبالمروق من الدين وقد تأتي شخصية المسيح غير منطبقة على ما ورد في الاناجيل وصورة موسى كليم الله مخالفة لما ثبتته التوراة وقد يكون سبب هذا التصرف هو نقل الصورة من حقيقتها التاريخية إلى عالم الرمز وهذا ما قام به Vigny و Lamennais و Renan و Baudelaire وهناك أسطورة بطلها اليهودي التائه قد الحقت بقصص التوراة وقد عالج يهوديها Goethe و Chamisso و Lenau و Wordsworth و Quinet و Eugène Sue .

ثالثا ــ التقاليد القومية :

يجتمع لدى شعب من الشعوب تراث قصصي تتداوله ألسنة الرواة فيقوم بعض الكتاب بجمع ذلك الشتات المنثور والزيادة عليه والتحوير فيه ثم يتضخم ذلك التراث وينتقل من قوم إلى غيره فيصهر هذا ما اقتبسه ونقله في بوتقة عاداته وتقاليده فيتكون من ذلك كله أدب قصصي يدور حول شخصيات فذة شبه بطولية وهذا ما حدث لعنترة في الادب العربي و Don Juan و Faust في الآداب الغربية .

عنترة :

ما ان مات عنترة حتى أخذت الاساطير تنسج حوله نسيجها وتضعه ضمن اطار يظهره المثال الاعلى للفارس الكامل والشاعر الفذ وقد ضخمت الاساطير عنترة الحقيقي فجعلت سواده حالكا ومعيريه أشد في الغلظة واصبح البطل المظفر، عكاز الضعيف العاجز وسيف المظلوم والطمّاح الذي يبذل كل شيء لاجل المجد المخلد واصبح حبه لعبلة أشد وقد هون في وجهه جميع العقبات واصبحت المصاعب التي تقوم دون نيل ودها كثيرة فالاعداء أشد بأسا وابو عبلة أشد مناعة والمعارك لا تحصى وهولها بلا قياس وحاجة عبس إلى فارسها أشد الحاحا وبطشه أشد وقعا وأبعد أثرا ودخل عنترة الاساطير وهو على ظهر حصانه الابجر تحيطه هالة من العفة والاباء والعدل والنصرة ويتبعه شيبوب ذلك الاخ الامين الحكيم الذي يرشده ويهديه سواء السبيل ويطير إلى نصرته وهو حاضر عند كل حاجة ويشبهه المستشرق الكبير غولدزيهر (Goldziher) بسانشو بانسا رفيق دون كيخوتي. (١)

---

(١) يعود فضل إطلاق عنترة من عالمه المحدود ودفعه الى رحاب أدب العالم الغربي لشكري غانم (١٨٦١ – ١٩٣٢) الذي صاغ قصة عنترة على شكل مأساة شعرية باللغة الفرنسية والتي قامت بتمثيلها عام ١٩١٠ فرقة مسرح الأوديون في باريس ، وقد عرفت تلك المأساة الرواج وقام الموسيقار Gabriel Dupont بتلحين بعض أجزائها التي دخلت في عداد مقطوعات الأوبرا في فرنسا .

وقد دخل عالم الاساطير العالمية عنترة والزير وسيف بن ذي يزن وجميل بثينة ومجنون ليلى الذي طفر من الادب العربي إلى الادب الفارسي حيث اتخذ له طابعا جديدا اذ ابتعد عن ميدان الحب والغزل العذري وتسلق قمم التصوف والرمزية .

فوست :

قصة فوست حقيقية اصبحت بفعل تطورها اسطورة شعبية موجزها ان عالما كيماويا يسمى فوست قد ولد في أواخر القرن الخامس عشر وقد توفي في النصف الاول من القرن السادس عشر (١٤٨٠ — ١٥٤٠) قضى حياته الغامضة والعجيبة بالسكر والكسل . حاكت الاساطير الشعبية حوله القصص الغريبة فزعمت أنه كان يتصل بالشياطين وأنه ساحر يخاطب الموتى ويستحضر الارواح وأنه وقع بدمه عقداً مع ابليس عاهده فيه أن يطيعه على أن يرجع له شبابه .

كانت حياة فوست الغامضة من العوامل المؤثرة في نشؤ هذه الاساطير وأول من ادخلها إلى عالم الادب هو الشاعر الانكليزي Marlowe فصور فوست في مأساته عام ١٦٠٤ على أنه خاضع للشيطان خضوعا تاما مما أدّى إلى ابتعاده عن جادة الصواب وموته عقابا له طريدا من رحمة الله . وقد تناول مارلو في مأساته بالتحليل والتمحيص اسمى المعاني الانسانية .

وقد روت أساطير أخرى أنه باع نفسه للشيطان بغية الوصول إلى معرفة الحقائق الازلية وما ان حقق هدفه حتّى انصرف عن الشيطان وأعلن عليه العصيان فغفر الله له وأدركته رحمته وهذه هي الفكرة التي كوّنها (Goethe) عن فوست وبفضله قفزت تلك الشخصية إلى ساحة الادب العالمي وأصبحت تجسد عددا كبيرا من الافكار الفلسفية والمعاني الانسانية .

درس المقارنون الالمان تطور شخصية فوست في الآداب العالمية وتابع (Pierre Lasserre) دراستها في فرنسا واقتفت اثرها Geneviève Bianquis خلال اربعة قرون وقال فيها القول الفصل الأستاذ Charles Dédéyan .

دون جوان :

وقد لقيت أيضا شخصية دون جوان (Don Juan) شهرة كبيرة في الآداب الاوروبية وتجسدت فيها اتجاهات متضاربة ومختلفة من المجون والاستهتار والاحتجاج على الاوامر والنواهي والتعبير عن روح متمردة تتحدى التقاليد وتنصرف إلى متع الحياة او تسعى وراء الكمال وفي الارتقاء إلى اسمى المثل الانسانية وقد أكسبت بعض الآداب سيرة دون جوان غنى وبثت في بطلها روحانية أصيلة ونزعت عنه حيوانيته التي ولدت مع لطيفته والتي لازمته طول حياته وسكبت في أذنه أنشودة الحب فتراءى وقد مسته يد التصوف وطهرته الروح .

أول من أخرج إلى الوجود شخصية دون جوان إلى عالم الادب هو راهب اسباني يدعى (Tirso de Molina) فصوّر بطل مسرحيته « ساحر اشبيلية وضيفه التمثال الحجري » (١٦٣٠) وقد تجسد فيه الانحلال الخلقي والتمرد والاستهتار والمجون فأثارت هذه الصورة ثائرة الكنيسة التي رأت ان وراء تدخل القوى الخارقة في المسرحية والتي يسخر منها المؤلف تهجما على سلطتها الروحية وسلطانها المدني فانزلت اللعنة على كاتب المسرحية وألحقت العقاب الالهي به ليكون مثلا وعبرة لسواه .

صوّر Molière في عام ١٦٦٥ دون جوانه خداعا للنساء يجحد وجود الله ولكنه ينزع إلى الخير ويتصدق على الفقراء والمساكين لا حبا بالله بل حبا بالانسانية .

جعل Goldoni الايطالي في عام ١٧٣٦ بطله آثما مستهترا لا يقيم وزنا للقيم والمثل الانسانية وللأخلاق القويمة .

سما بيرون Byron في الأدب الانكليزي بدون جوانه واستطاع أن ينبت على أنقاض هذه الكوميديا الشيطانية زهرة من زهرات الشعر فصور بطله كرمز للطريد من حظيرة مجتمعه وما لسبب الا لانه يقف موقف المتمرد والمعارض لتقاليده الظالمة وريائه فهو يدعو مثلا إلى الحب الحر الطليق .

وقد جعل دون جوان مادة أدبية كل من Pouchkine و Mérimée و Musset و Lenau و Zorilla و Baudelaire وقد بحث Gendarmc de Bevotte عن الصور المختلفة التي ظهرت فيها شخصية دون جوان الفذة (انظر : **La légende de Don Juan,** 2ème édition, Paris, Hachettc 1929)

رابعا ــ التاريخ القديم والحديث :

يحب الانسان الموضوعات التاريخية ويؤخذ بمظاهر البطولة ويقدس الشخصيات التاريخية ويُجِلّها وقد تكون هذه الشخصيات شبه اسطورية وهذا ما حدث لعنترة وللملك ارتور وفرسان المائدة المستديرة وقد تكون هذه الشخصيات معروفة وتاريخية حقة فلا يستطيع من يعالجها أن يتحرر من قيود التاريخ ورغم ما يصيب تلك الشخصيات من التحويل والتحوير فهي تبقى شديدة الاتصال بواقعها التاريخي فمن يجرؤ مثلا على تصوير نابليون وكأنه جبان رعديد أو مشدوه غبيّ ، تقاوم الشخصيات التاريخية نزوات المؤلف وتبقى بفعل كيانها الخاص منسجمة مع الواقع والتاريخ وقد لقيت بعضها حظوة خاصة وعناية بالغة وقد عرف الاسكندر الكبير الرواج في آداب اوروبا الغربية وذلك في العصور الوسطى وهو لا يغري الكتّاب المعاصرين وقد لقي يوليوس قيصر وابنه بالتبني وقاتله بروتوس من يدفعهما إلى المسرح العالمي فأضفى عليهما شكسبير مسحة سيكولوجية وسياسية لم يتخلص منها من جاء بعده وحاكى مسرحيته .

ويصعب علينا متابعة مصير جان دارك ودون كارلوس والملكة (Marie Stuart) وكروموبل والامبراطور نابليون وما لاقوه من الرواج في الأدب الاسباني والفرنسي والانكليزي والايطالي والالماني . وقد يهمنا معرفة مصير النبي محمد في الأدب الايطالي وفي الادب الانكليزي والالماني والاسباني والفرنسي .

(انظر : محمد ، مأساة لمؤلفها فولتير)

خامسا ــ الحياة اليومية :

تخلق الحياة اليومية العديد من النماذج البشرية فهناك نماذج انسانية خالدة كالبخيل والمقامر والمتنبل ويصعب بخصوصها الجزم بأصالتها أو بخضوعها للتأثير والتأثر وهناك نماذج قد طبعتها عصور الأدب بطابعها الخاص فقد تساءل القرن الثامن عشر البورجوازي النزعة عن واجبات القاضي والمصلح والأب الفاضل وتعلقت المدرسة الواقعية بالعامل وقدسته بتأثير Zola واهتّم الأدب المعاصر بالفنان وبدوره في المجتمع وحمل الادب الثوري على الكهنة والرهبان والراهبات ورجال الدين وعلى أصحاب السلطة والسلطان وبرز إلى الوجود في الادب الحديث الكادح ورجل الاعمال والعالم والمختّرع واحتلت النماذج المؤنثة مكانها تحت الشمس وقرأنا الكثير عن الفتاة الساذجة وعن صاحبة البائنة (dote) ودخلت طبقات المجتمع السفلى إلى عالم الآداب العالمية وظهر الطفيلي مع Diderot انظر

(**Le neveu de Rameau**) والمومس التي تبدو أحيانا كامرأة مثالية تضحي في سبيل عشيقها الغالي والنفيس (انظر : اللص والكلاب لنجيب محفوظ) أو تقوم بعملها رفقا بطفلها الرضيع . وقد تمثل بعض هذه النماذج قوما معينا : الانكليزي وصلفه الالماني وثقل دمه الايطالي وثرثرته الفرنسي ودعابته . وقد تبين هذه الصور الكاريكاتورية سيكولوجية الشعوب وعملها في تحوير الحقيقة وابعادها عن الواقع ومدى ما يعتري هذه النماذج من تغير وتبديل وابتكار .

نماذج بشرية أو ابطال خرجت من الاساطير ؟ حقلان خصبان للمقارن الذي يجد الظرف الملائم للقيام بدراسات اجتماعية وسياسية وفلسفية وخلقية مبتعدا عن التوثيق وعن افراغ جعبة الجزازات لئلا يطلق عليه اسم « صحفي غفل » (Pédant) وملتمسا طريقه الصعبة بغية الوصول إلى سبر أعماق أسس الفكر والحضارة .

هـ) ـ التيارات الفكرية

ان التبادل التقافي والفكري والادبي الحاصل بين بلدين هو من اختصاص تاريخ الفلسفة والفكر والعقائد والاديان وقد يعجز الادب المقارن عن معالجة أمور التيارات العالمية ويستحيل عليه أن يفيها حقها بحثا وتحليلا وتمحيصا ومن يستطيع ان يدرس

على سبيل الحصر أثر Kant أو Luther في فرنسا ان لم يتمرس على تاريخ الفلسفة والعقائد والاديان ؟

وقد يصعب التمييز بين التيّار الفلسفي او الديني والتيار الادبي اذ يرتقي بعض الادباء إلى عالم العبقرية والنبوغ ويجيدون التعبير برصف ألفاظهم ويحسنون التفكير بفضل منطقهم وفلسفتهم فيصبحون محط انظار الفلاسفة والادباء وقد انجب التاريخ عباقرة كانوا في الآن نفسه كتابا ومفكرين أمثال Montaigne و Pascal و Rousseau في الادب الفرنسي وامثال الجاحظ والمعرّي وجبران خليل جبران وأمين الريحاني في الادب العربي فكانوا ضالة المؤرخ والمقارن والفيلسوف وهل نستطيع أن ندرس أثر جبران في الحركة الهيبية دون ان نتذرع في الآن نفسه بالفلسفة والادب ؟ هناك حقل مشترك يجتاحه تارة دارسو ناريخ الفكر وطورا باحثو تاريخ الأدب ويمتلك فيه الفريقان حقوقا متساوية وأنّى للوجودية أن تنتشر في فرنسا لو لم يلبس (J. P. Sartre) مبادئها الالمانية ثوبا أدبيا رائعا فرنسيا صاغه لها من مجموعة من الروايات والمسرحيات ؟ وهكذا وفق أديب في نشر الافكار المجردة حين اضفى عليها اللون الملائم لاذواق معاصريه فكان في الان نفسه أديبا وفيلسوفا .

وبما أنه يصعب أحيانا تحديد حقل الادب وفصله عن العالم

وهذا ما حدث للجاحظ معلم العقل والأدب ولابن المقفع معلم الثقافة والادب اللذين ألما بثقافة واسعة وقربا فلسفة عصرهما وعلومها إلى كل ذهن وصاغاها صياغة أدبية وألبساها أسلوبا رفيعا ومزجا حكمة اليونان والفرس والهنود بأشعار الجاهليين وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء وعبرا باللغة العربية عن كل علم وكل فن حتّى اننا نتساءل بخصوصهما: هل يدرس أدبهما مع الأدب الصرف أم يدرس مع تاريخ الفكر والثقافات الاجنبية الّتي تفاعلت مع الثقافة العباسية لتكون خليطا فيه الاصالة العربية والنزعة اليونانية (الّتي تميل إلى التحليل والتعليل) والهندية (الّتي تميل إلى التأمل والتصوير والتمثيل وضرب الامثال وتعزيز الارشاد والحكمة بالمثل السائر والقصة المأثورة) والفارسية (الّتي تميل إلى الزخرف اللفظي والتنميق والتفخيم والاطناب في الكلام والكتابة) ؟

ان دراسة الادباء لا تفصل الشكل عن الجوهر ولا المبنى عن المعنى وقل الشيء نفسه بخصوص العلاقة الوثيقة الّتي قامت بين الفلسفة والادب في العصر العباسي فانتظم علم الكلام الاسلامي ونزعت العلوم الدينية واللسانية في اكثرها نزعة فلسفية بتأثير العلوم والفلسفة اليونانية واتسعت آفاق الثقافة العربية وتنوعت مجاري الفكر العربي وتعددت الفرق الاسلامية وانصرفت إلى تأييد مذاهبها بالفلسفة وما فيها من استدلال ومنطق كما انتشرت فلسفة التصوف وطرائقه وعقيدة التناسخ والحلول ونحوهما من عقائد الهند واليونان .

وليس من السهل تعريف الجاحظ وابن المقفع وتحديدهما دون الكلام عن أدبهما وفكرهما في آن واحد كما أنه ليس من السهل القيام بأبحاث مقارنة مجدية حول العصر العباسي دون التحدث عن الحضارات الاجنبية والفلسفات المستوردة التي أثرت فيه فتاريخ الادب ضروري لفهم التيارات الفكرية التي سيطرت في عصر من العصور على أدب واحد ثم تعدته إلى آخر وقد تتجاوز بعض الحركات حدود التأثر والتأثير وتشكل لوحة حضارية أو فكرية يظهر فيها أكثر من أدبين وقد رأى عصر النهضة في أوروبا نشوء عدد كبير من التيارات التي تداخلت وتفاعلت في اكثر اقطار اوروبا الغربية كالبترار كية (Pétrarquisme) والانسانية (Humanisme) والانجيلية (Evangélisme) والاصلاح الديني البروتستنتي (Réforme) كما ان اوروبا رأت حركات أخرى نشأت فيها طوال العصور الادبية كالكلاسيكية والتنوير والرومانتيكية والواقعية والرمزية والسوريالية الخ . . . فهل هذا النوع من الدراسات هو من اختصاصات الادب المقارن ؟ وهنا يجب أن نستبق مخطط سير بحثنا وأن نميز حقل الادب المقارن عن حقل الادب العام .

ان دراسة الحياة العاطفية في العذرية والصوفية العربية والفارسية والواقعية المستوردة إلى الادب العربي في عصرنا الحاضر وتأثر القصة العربية بالسوريالية هي من اختصاصات الادب المقارن

اما دراسة حركة التصوف في اكثر من بلدين كدراستها في الهند وبلاد فارس والعراق او دراسة الواقعية في الآداب العالمية وتأثر القصة العالمية بالسوريالية فهذه الدراسات من اختصاصات الفلسفة أو الأدب العام واذا كان الأدبان المقارن والعام يعالجان كلاهما ظواهر قد تتشابه ويعتمدان ما هو وليد التأثر والتأثير الحق فالأدب المقارن لا يختلط بالادب العام اذ يتمسك بأدب قومي معين ويعتمده كمنطلق ولذا يكتفي بدراسة العلاقات الثنائية فقط .

●

خاتمــة

نوضح ثانية مفهوم الأدب المقارن ونقول لا يجوز لنا الا في حالات خاصة واستثنائية أن نقارن رائعتين أدبيتين قد تتشابهان ولا ترتبطان بروابط الزمان والمكان وأن ندرس التأثر والتأثير دون أن نتقيد بمنهجية صارمة حدّدها الأدب المقارن .

تهدف دراسة الاحداث الادبية الموثوق بها او الروائع المكتوبة في أدبين إلى شرح الحقائق بواسطة الطريقة التاريخية والتسلسل الزمني وبيان كيفية انتقال ظاهرة أدبية من لغة إلى أخرى وتوالدها بعضها عن بعض ويجب ألا ننخدع أيضا بمجرد توارد الخواطر فقد تتشابه الافكار الفردية لانها وليدة أحداث متماثلة وبناء عليه كنّا لا ندرج في باب الادب المقارن أحداثا متشابهة دون أن يكون بينها صلة اكيدة فليست هناك لإشعار آخر قيمة للموازنة التي تعقد بين الشاعر الانكليزي Milton (١٦٠٨ – ١٦٧٤) وبين ابي العلاء المعرّي (٩٧٣ – ١٠٥٨) لمجرد ان الاديبين كليهما كانا كفيفين وانهما نتيجة لعاهتهما المشتركة تغلبت على آثارهما نزعة التشاؤم والتبرم بالحياة . لم يعرف أحدهما الآخر ولم يتأثر أحدهما بالاخر وما كان من تشابه في ظروفهما وآرائهما انما كان من قبيل الصدفة كما كنا

لا نقيم وزنا للمقارنة التي تقام بين أبي فراس (٩٣٢ – ٩٦٨) وبين Charles d'Orléans (١٣٩١ – ١٤٦٥) شاعري العاطفة الرقيقة والعزة الملكية . ان مكانتهما الاجتماعية متشابهة فكلاهما من أسرة أمراء كانوا في أوج العز والمجد وكلاهما قارعا الجيوش للذود عن الوطن وكلاهما وقعا في الاسر ولم يهب أهل التاج والصولجان إلى فدائهما بل أهملوهما ليأمنوا شرهما ويكسروا من شوكتهما ويحطوا من منزلتهما وكل منهما في أسره ذكر في شعره الخدمات التي أداها عندما كان يقارع الفرسان وأخذ ينذر ويتوعد فكانشعره طافحا بالشعور الأليم المرهف والعاطفة المتدفقة والحنين إلى الوطن وهو عصارة نفس شريفة متألمة ونفحة من أجمل نفحات الشعر الانساني .

ونعود ونقول ان الموازنة بين ابي تمام والبحتري وتأثير بديع الزمان في الحريري والموازنة بين حافظ وشوقي و Corneille و Racine و Voltaire و Rousseau الخ ... هي من اهتمامات الادب القومي ولن تدخلن قط في حقل الادب المقارن اما الحقول التي درسناها سابقا فهي من صميم الادب المقارن أي حقل كل من :

– الكتب والمطبوعات :

ومن مواضيعه : تأثير الادب المسرحي الاغريقي في مسرح Racine ومدى تأثر الكوميديا الالهية بالاسلام عامة وبرسالة الغفران خاصة .

– رجال الأدب :

ومن مواضيعه : دور توفيق الحكيم في تعريف المسرح الاغريقي ونشره في مصر ودور ابن المقفع في اصلاح المجتمع العباسي على الطريقة الفارسية الكسروية .

– التأثر والتأثير :

آ – قطر أو بلد في أدب غيره من البلدان ومن مواضيعه : صورة احدى الدول العربية في الادب الفرنسي او الانكليزي مثلا .

ب – **الاجناس أو الفنون الادبية** ومن مواضيعه : المقامات في الادب العربي ثم انتقالها إلى الادب الفارسي ومدى ما طرأ عليها من تغير وابتكار في الادب الفارسي وكيفية انتقال الاساطير من الأدب الفارسي إلى الادب العربي ونضوج هذا الفن وتكامله على ايدي العرب وتأثير الكاتب الفرنسي Guy de Maupassant في القصة المصرية القصيرة .

ج – **الابطال والنماذج البشرية** ومن مو اضيعه : دراسة مجنون ليلى في الادب العربي والفارسي ودراسة العربي كما يظهر من خلال ادب الرحالة الاجانب أو دراسة الفرنسي كما يظهر من خلال أدب الرحالة العرب الذين قصدوا فرنسا .

د — **التيارات الفكرية ومن مواضيعه** : انتقال الوجودية من المانيا إلى فرنسا بواسطة أدب J. P. Sartre وحركة رفض الطلاب والصحافة الفرنسية وأثرهما في طلاب لبنان أو افكار (Marcuse) وأثرها في حركات الرفض (مع تعيين بلد واحد وتحديده) .

ورغم أن الأدب المقارن علم حديث العهد فقد اصبحت له مقوماته وخصائصه بفضل طلائع المقارنين ولكنه ككل علم ناشيء يجتاز أزمة نمو وقد لا يتفق المقارنون على تعيين حدوده وضبط اتجاهاته وقد ظهر فيه تيار الماني (١٨٨٠ — ١٩١٠) انصرف إلى دراسة مصادر الادب الغريب ومواضيعه واجناسه وقد اهتم الفرنسيون بادىء الامر بقضية تطور الاجناس مع (Brunetière) ومدى نفوذ الكتّاب خارج بلادهم الاصلية اي ما عرف عن Goethe و Shakespeare و Shelley و Montaigne و Rousseau الخ . . . في فرنسا او في انكلترا او في المانيا ثم أخذوا (١٩٥٠) يهتمون بالصلات المتداخلة والمتفاعلة التي تقوم بين الشعوب والأمم الغريبة عن بعضها البعض ويعود تحول الاتجاه الفرنسي إلى تطبيق عكسي للمبادىء التي تبناها مؤرخو الادب الذين كانوا ينتمون إلى حتمية Déterminisme الناقد الفرنسي المعروف Taine (١٨٢٨ — ١٨٩٣) .

حددت الحتمية القوانين التي تعمل عملها في الادباء وهي بنظرها ثلاثة : العرق (race) والبيئة (milieu) والزمان (temps) . فأما العرق فيقصد به مجموعة الاستعدادات الفطرية التي يرثها المرء بواسطة الدم مع جميع افراد عرقه فاذا درسنا عرقا وجدنا فيه خصائص معينة تطبع بطابعها آثاره العقلية والفلسفية والادبية مهما اختلفت بيئات ابناء العرق الواحد ومهما تنوعت نظم الحكم ومهما تباينت مدنيتهم وتعتبر الحتمية أن العرق هو أقوى العوامل الثلاثة التي تحدد تماثل الانتاج الفكري وأما البيئة فهي مجموعة الاحوال التي يخضع لها العرق ومن هذه الاحوال ما هو دائم وثابت كحالة الاقليم والمناخ ومنها متغير مثل حركة الفكر والفن والاختراعات . وأما الزمان فالمقصود به هو أن لكل عصر أحداثه الخاصة وظروفه التي تؤثر في انتاج الادباء الذين يعتبرون مرآة عصرهم مهما تباين أدبهم وتنوعت ثمار قرائحهم ومعنى هذا أن الاديب ثمرة حتمية لهذه القوانين الثلاثة وكما ان الطبيعة لا تعرف القوانين الفردية كذلك تحكم الاديب قوانين عامة ملزمة .

وهذه القوانين الثلاثة التي تعمل عملها في كل عرق من الاعراق هي تلك التي يستمد منها الاديب مقوماته وتعمل عملها فيه وهو لا يستطيع أن يخرج من تأثيرها لأنه فرد من أبناء عرقه قد تقع عليه المؤثرات التي تقع عليهم ولا يستطيع ان يفلت منها شأنه شأن الشجرة التي هي نتاج بيئتها .

اعتبر مؤرخو الادب الحتمية كدستور عام التزموا به مدة طويلة وعدوا كل خروج عليه من قبيل التأثر والتأثير . اننا لا ننكر أهمية الحتمية ولكن مؤرخ الادب يسعى الآن في فهم كاتبه ولا يحاول أن يعرفه بتطبيق الحتمية عليه فالأديب الكبير ظاهرة فردية وفريدة في نوعها وتحليل الانتاج الادبي هو ليس ربطه بالحتمية والعودة إلى تعداد مصادره ومراجعه وتأثيره وتأثره بواسطة الطرق التاريخية اللونسونية (نسبة إلى Lanson) بل هوالتحري عن عامل الخلق والابداع فانصرف مؤرخو الأدب عن حقول قد اشبعها الدارسون بحثا وتمحيصا وانصرف معهم المقارنون إلى مواضيع الخلق (création) وإلى اقامة موازنات خرجت عن خط الواقعية الايجابية فانفتحت آفاق جديدة للمقارن الذي أخذ يقيم الموازنات بين خلق وابداع ابي العلاء و Milton وبين المناخ المتشابه الذي عاش فيه كل من أبي فراس و Charles d'Orléans والذي أدى إلى صبغ انتاجي الشاعرين بلون واحد فدخلت في صميم الادب المقارن مواضيع كانت لفظتها دراسات هذا الادب بالذات قبل عشرين عاما .

●

الأدبُ العَام

مشكلة المصطلح :

يعتبر الأدب العام كمدّ للأدب المقارن فالعلاقات القائمة بين هذين النوعين من الدراسات الادبية وثيقة حتّى انه يصعب اقامة حدود فاصلة بينهما ويستحيل غالبا الكلام عن الادب العام دون اثارة موضوع الادب المقارن .

ان أول من ألقى دروسا تقع اليوم في زمرة الادب العام هو Népomucène Lemercier وقد نشر في عام ١٨١٧ محاضراته تحت عنوان :

Cours analytique de Littérature générale

وكان موضوع دروسه عاما بمعنى أنه اهتم فيها بالاجناس الادبية وبتطورها كما أنه رسم لوحة شاملة ذكر فيها تواريخ اكثر الآداب العالمية المعروفة . واذا كان Lemercier قد اهتم بالادب العام وهو يدري طبيعة دراساته فهناك عدد كبير من الباحثين والادباء قاموا بدراسة ما نسميه الآن **الأدب العام** وهم اما لا يعلمون أنهم يؤسسون علما جديدا واما يظنون أن ما يقومون به من الاعمال يعود إلى الادب المقارن ونذكر من هؤلاء الاديب الكبير الالماني غوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) والالماني

Georg Brandes والـــدانمركي Hermann Hettner (١٨٤٢ — ١٩٢٧) والفرنسيين J. Texte (١٨٦٥ — ١٩٠٠) و Paul Hazard (١٨٧٨ — ١٩٤٤) .

ان المانيا سبقت فرنسا في بث روح العالمية الكوزموبوليتية وكان من الداعين إلى هذه النزعة غوته نفسه اذ طالع أدب الهند والشرق الاقصى ودرس الادبين العربي والفارسي من خلال ما ترجمه المستشرقون وله ديوان الشرق والغرب West-Ostlicher Divan يحاكي فيه عيون الشعر العربي والفارسي وكان غوته قولا وعمـــلا من دعاة ما سمّاه : عالمية الأدب (Weltliteratur) .

وأعلن الالماني هرمان هتنر ان الوقت قد حان لكتابة تاريخ الآداب العالمية ووضع مؤلفا في **تاريخ أدب القرن الثامن عشر في انكلترا وفرنسا والمانيا** وقد نشر مؤلفه في الفترة الواقعة بين (١٨٥٦ — ١٨٧٦) .

كلف نفسه الدانمركي براندس الاهتمام بالتيارات الادبية العالمية ليقيم الدليل على تداخل التأثيرات الاجنبية وتفاعلها في أوروبا وأطلق على مؤلفه اسم : **كبرى تيارات الادب الاوروبي في القرن التاسع عشر** وقد نشر مؤلفه في الفترة الواقعة بين (١٨٧٢ — ١٨٩٠) .

كان الفرنسي تكست من أئمة الباحثين الذين وجهوا جهودهم في آخر القرن التاسع عشر إلى دراسة الصلات القائمة بين مختلف الآداب الاوروبية ويمتاز بحثه: «جان جاكروسوومصادر العالمية الكوزموبوليتية الادبية » .

Jean - Jacques Rousseau et les origines du cosmopolitisme littéraire

(نشر المؤلف في عام ١٨٩٥) بالنظرات الشاملة التي تربط تطور الافكار بتطور الشعوب وتنوع احوالها الاجتماعية وتعد دراسته الرصينة على حق كموضوع كبير من مواضيع التاريخ الادبي العالمي وقد كان Texte يؤمن أن الشعوب كانت وما زالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والخيرات المادية وان التيارات الادبية تنتقل من جهة إلى جهة ومن شعب إلى شعب دون انتصدها العوائق والعقبات وكان من الدعاة لأدب عام اوروبي وقال بهذا الصدد: «في اليوم الذي يتبلور فيه ذلك الأدب الاوروبي سيصطبغ كل نقد أدبي بالعالمية وستعقد أواصر الصداقة متجاوزة الحدود الوطنية (ان بقيت قائمة لذلك اليوم الحدود المصطنعة) وستشد تلك الاواصر الشعب إلى الشعب وستعيد لاوروبا بأسرها وحدة روحها الاجتماعية كما كان عليه الحال في العصور الوسطى » . وهكذا يتمنى تكست نشوء أدب اوروبي عام قد يكون بمثابة المرحلة الأولى لأدب عام عالمي .

وعندما يطالع القارىء ابحاث بول هازار (Hazard)

يلمس اهميتها بالنسبة للأدب العام وهي خير شاهد على ثقافة هذا العالم الواسعة ونشاطه العقلي ويهمنا من دراساته المستفيضة والمتعددة مؤلفه « **أزمة الفكر الاوروبي في القرن الثامن عشر** » (نشر عام ١٩٢٦) .

La Crise de la Conscience européenne au XVIIIè siècle

وبما ان هذه الدراسة تطلعنا على مختلف نواحي هذه الازمة الروحية التي عمت كل انحاء اوروبا يميل دا رسو الأدب العام إلى تصنيفها مع ابحاثهم .

وهكذا بفضل جهود هؤلاء العلماء أخذ الادب العام يظهر كعلم يختلف بعض الشيء عن الأدب المقارن كما أن الدراسات المقارنة اتخذت في الولايات المتحدة الاميركية شكلا خاصا واختلط مفهومها بالأدب العام في مطلع القرن العشرين اذ أخذت جامعاتها تدرس روائع الآداب العالمية مع لمحة خاطفة سريعة عن تاريخ الأدب العام وقد اطلق على هذه المادة التدريسية الجامعية اسم General Literature ولم يعرف هذا النوع من الدراسات الرواج في الجامعات الاوروبية التي وصمته بأنه سطحي وتافه ولكنّ العالم القديم احتفظ بالمصطلح لتحديد بعض الدراسات المقارنة الاكثر شمولا واتساعا من سواها .

ولا بدّ لكل علم جديد من مؤتمرات تعقد له ومن ندوات

تناقش محتواه ومن نزاعات وخلافات تنشب حوله وقد اتّهم المقارنون فرنسا بالتزمت وقالوا انها تريد ان تتسلط على الدراسات المقارنة وانها جعلت الادب الفرنسي محورا تدور حوله الآداب العالمية واحتدم النزاع حول أجناس صنفت سابقا مع الادب المقارن وهي ليست منه بل من الادب العام وحول حقول خرجت عن أصلها ودخلت ميدان الأدب العام وعلى سبيل المثال نذكر شيئا من خلاف نشب بين الالمان كطرف أول والفرنسيين والايطاليين كطرف ثان :

تفوق الالمان في ميدان دراسة تاريخ المواضيع (Stoffgeschichte) على اقرانهم الفرنسيين والايطاليين وجعلوا الأدب المقارن يسلك هذه الطريق فقامت المدرسة المقارنة الفرنسية ويدعمها الايطالي (Benedetto Croce) تدعي ان المواضيع (thèmes) هي المادة الخام للأدب وان الفكر البشري قليل الابداع والابتكار وهو لا يعيش الا على رصيد ثابت من الموروثات فالأدب الحق يحول ما ورثه من مواضيع ليجعل منها مادة جميلة تؤثر على القارىء فلذا من العبث دراسة المواضيع التي تعد كمادة الأدب الخام ومن العبث تخويل علم التوثيق documentation حق الانتماء إلى الدراسات الادبية والانتساب اليها وقد تهكم الفرنسيون وأثاروا قضية « البرغوث في الآداب العالمية » وما يستوجب هذا الموضوع من تعدادات مسهبة وشواهد أدبية يربطها ببعضها البعض تحليل

مهلهل وقد حرّم (Paul Hazard) على المقارنين دراسة المواضيع بحجة أنها من مقومات الأدب الأساسية ومن مواده الخام المجردة من كل جمالية وأنها لا تصبح أدبا ولا تصير مادة بحث الا بفضل الشكل والتعبير والصيغة والانشاء كما أنه حدد أهداف الأدب المقارن التي ، حسب زعمه ، تتوخى كشف ميزات كاتب معين أو عقليات شعب وقوم ولكن اقوال Paul Hazard التي كانت تحمل في ثناياها خلاصة نظريات بعض المقارنين الفرنسيين لم تثن عزيمة، حتى مقارني فرنسا وايطاليا أنفسهم الذين ثابروا على الاهتمام بتاريخ المواضيع أسوة بزملائهم علماء المانيا مما أدى إلى تنشيط هذا النوع من الدراسات التي كانت تقع على حدود الأدب المقارن والتي اجتذبها اليه الآن الأدب العام .

فهذا الأدب العام الذي يجتاح حقل الأدب المقارن ويعود بالغنائم ألا نستطيع أن نعرفه ونحدده كما صنعنا بخصوص الأدب المقارن ؟ علينا بالحقيقة لكي نتفهم معنى الأدب العام مواجهته بالمصطلحين المعروفين وهما الأدب القومي والأدب المقارن.

اولا ــ الأدب العام والأدب القومي :

لا وجود لأدب قومي الا بواسطة اللغة وليس هناك في مجال الثقافة وفروعها أمر أشد تأثيرا في الشعوب منها لان عملها لا ينحصر في الفهم والافهام وادراك أفكار الاخرين فقط بل

يتجاوزه إلى ربط أفراد الشعب أو القوم بوحدة الآمال والاماني ويلبس الأدب حلة قشيبة بواسطة اللغة التي نسميها قومية أو وطنية رغم أننا قد لا نجد تطابقا تاما بين القوميات واللغات وقد نجد لغات قد انتشرت في بيئات غريبة عن مهدها فهذه الانكليزية والفرنسية والاسبانية تلاقي رواجا في بيئات بعيدة عن اوروبا وقد نجد لغات قد تبنتها اكثر من قومية واحدة (الانكليزية والفرنسية مثلا) كما أننا نرى ان بعض الشعوب تستعمل لغتين او ثلاثا او اكثر (سويسرا مثلا).

وهذه اللغة القومية التي تحدد مفهوم الادب القومي قد تحثنا على تلمس ضيق مصطلحه فمن منّا لا يشعر بميل للخروج من اطر أدبه القومي الضيقة ليجري في رحاب الادب العالمي. ليس الادب حكرا على شعب معين واننا نجد ادباء لامعين في كل قطر وفي كل زمن ولا يجوز لنا أن نعزف عن مطالعة الانتاج الادبي الاجنبي بحجة أننا لا نفهم اللغات التي كتب بها وهناك ادباء فرضوا أنفسهم على العالم أجمع ومن السخف أن نجهل آثار Shakespeare و Molière و Dante و Montaigne و Cervantes و Goethe و Schiller و Tolstoï و Dostoievski الخ . . .

وهل نقبل عذر الاجنبي الذي يتذرع بأنه يجهل العربية لكي لا يطلع على القرآن الكريم أو على الجاحظ أو أبي العلاء أو طه حسين ؟

ان اللغة التي تعطي القومية هويتها تزيل الاسباب التي تؤدي إلى سوء الفهم وسوء الظن وتستبدلها بأحسن أنواع الصلات وأوطد الروابط ولهذا قيل : الاشتراك في معرفة لغة طريق للحب والصداقة ولن نذكر ما للترجمة من فضل على الذين يجهلون اللغات الاجنبية ولن نحاول أن نبين أن عزلة أدب عن غيره لا تتم بشكل قاطع وأن الأدب القومي لا يبعث سناء خاصا الا في العصور التي يتم فيها تفاعله مع آداب أخرى وهذا ما حدث للأدب القومي العربي في العصر العباسي ولكننا سوف نذكر حدثا هاما غريبا عن الأدب يعمل لصالح الادب العام : لقد قضى عصرنا الحاضر على الابعاد الشاسعة بفضل وسائل النقل الحديثة وسهّل الاطلاع على ما يجري في البلاد النائية وعملية السفر اليها والمكوث فيها وادخل في صميم الحياة اليومية وسائل التبادل الفكري كالاذاعة والتلفزة مما أدى إلى تبادل البرامج الفنية بين اكثر محطات العالم وإلى توسيع آفاق الفكر وإلى نشر روائع الادب العالمي فقامت بعض المنظمات العالمية تعمل في تنشيط التبادل الفكري والادبي وأخذت اليونسكو تنشر في مختلف اللغات روائع الفكر والأدب العالمي وانشأت الدول الغربية جائزة Fromentor لتكلل جهود أديب ناشيء ولتنشر في اكثر اللغات الاوروبية المؤلف الذي يفوز بجائزتها .

لا يزال مفهوم الادب العام غامضا بالنسبة للفمهوم الدقيق

الذي نطلقه على الآداب القومية أو الوطنية وقد لا يتم تحديد الأدب العام الا بواسطة تحديد الادب القومي فنقول : ان الادب العام هو كل أدب لم يكتب بلغتنا القومية وقد لا نعثر حتى من خلال تعريفنا هذا على أدب عام تنضوي تحت لوائه كافة الآداب القومية أو تنسجم فيه كجسم متعض أو كشجرة وارفة الظلال تتألف من جذور وجذع وأغصان فنحاول ايجاد تعريف اوضح باللجوء ثانية إلى الادب القومي ونقول : ان البحث المستفيض والمتعمق عن عناصر تكوين الادب القومي قد تؤدي إلى تحديده وتفسير ظواهره تفسيرا علميا وبالتالي إلى تصنيف العناصر الدخيلة عليه والتي تخالفه وإلى نسبتها إلى أدب غريب صدرت عنه فالدعوة إلى دراسة الادب القومي تبث فينا شعورا غامضا بوجود آداب تخالف الادب القومي وتناقض مبادئه ومقوماته وبما ان هذه العناصر تمنح كل أدب هويته ولونه ونوعه يتألف اذا الادب العام من لوحة ترتسم فيها الآداب بكاملها مع هوياتها وألوانها وأنواعها المختلفة والمتباينة والمتناقضة

ثانيا ـ الادب العام والادب المقارن :

يصعب علينا في اكثر الحالات أن نبين الخلافات حتى الجوهرية التي تفصل الادب المقارن عن الادب العام فقد تتلاشى هذه الخلافات وتنعدم ويظهر الادب المقارن والادب العام كصنوين لا يفترقان وقد نعتمد في تحديد هذين النوعين من الآداب على صورتين قد تقربان عالم التجريد إلى الاذهان .

وجدنا أن الادب المقارن يدرس عادة التأثر والتأثير الحاصلين بين أديبين أو أدبين مختلفين في اللغة وانه يدرس عاملي التأثر والتأثير في أدباء وآداب الامم المختلفة شريطة ألا نهمل الناحية القومية . ان تعلق الادب المقارن بما هو قومي أو وطني يؤدي إلى تشبيه العاملين في حقله بموظفي الجمارك الذين يقفون على الحدود لحماية البضاعة الوطنية من المزاحمة الاجنبية ولذا يراقب المقارنون عبور الكتب الغربية وترجماتها من حد بلد إلى حد بلد آخر وينظرون في هوية كل شخص او بضاعة تحمل سمة أجنبية.ان تصوير المقارن على هذا الشكل لا يسيء اليه فموظف الجمارك يتحلى بصفات ممتازة كروح الملاحظة والمشاهدة والاطلاع والمبادهة كما أنه لا يخلو من الانسانية عندما يغض النظر عن بعض السلع الاجنبية او يتساهل في ادخالها إلى بلده بعد أن يقوم بتسجيلها وبجمركتها وقد قبل المقارنون بهذا التشبيه الكاريكاتوري حتى أن أشهر مقارني المانيا سمّى المؤلف الذي وضعه في الادب المقارن : « على حدود الآداب القومية » .

Kurt wais, : **An den Grenzen der Nationalliteraturen,** Berlin 1958.

قد يترفع الادب العام عن قبوله وظيفة الجمركي وقد يأنف مراقبة الحدود الوطنية ويأبى التقيد بالقومية فتعلقه بما هو عام وعالمي يؤدي إلى تشبيه العاملين في حقله بالطيارين الذين يحلقون فوق أجواء العالم البشري ويقطعون المسافات الشاسعة بطائراتهم

التي تسير بسرعة الصوت بعد ان تملصت من قيود الحدود الجغرافية والقومية . ينسب خصوم الادب العام السطحية لهؤلاء الطيارين (وهذا ما حدث للدراسات التي كانت تقوم بها جامعات الولايات المتحدة الاميركية في مطلع القرن العشرين) ويرون ان الطيار لا يلقي وهو يحلق في الجو الا نظرة سطحية او مسطحة (Une vue plane) على الارض . بينما يرى المهتمون بالادب العام أن الطيّار يمسح من علو العالم البشري ويتعرف على خفاياه وعلى تقاسيمه اي جباله ووهاده ، سهوله ووديانه وانه يتسنى له أن يتمتع بنظرة شاملة قد لا تتيسر للجمركي .

لندع الآن هاتين الصورتين ولنحاول تعريف الادب العام بالنسبة للادب المقارن فنقول : ان الادب المقارن يتضمن حدين احدهما وطني وثانيهما أجنبي وأنه يتتبع حركة التأثر والتأثير الحاصلة بين أدبين عادة أو بين اكثر في بعض الاحيان لا شك في أن الادب العام يستثمر مكتسبات الادب المقارن ويضيفها إلى نظراته الشاملة وهو يتخطى الحواجز التي تقيمها الآداب الوطنية وهو يأبى أن يلخص ما ورد في ثنايا الآداب العالمية لئلا يوصم بالسطحية ولذا هو يهتم بالحركات العالمية وبالتيارات الانسانية الادبية ليشيد صرحا مجيدا للفكر البشري الخلاق والمبدع وليبني هيكلا تقام فيه الطقوس لكافة الشعراء والادباء بصرف النظر عن عرقهم وجنسهم ولغتهم القومية .

الأدب العام - حقل اختصاصه

تكونّت حقول الأدب العام اما بفعل انسلاخ بعض حقول الأدب المقارن التي فارقت أصلها والتحقت بالادب العام واما بفعل تقدم العلوم الادبية والانسانية التي سعت في توسيع ميدانها واستكمال شروط نموها ونذكر من الحقول المنسلخة عن الأدب المقارن الدراسات التي تتعدى حدود العلاقات الثنائية لتعالج حركات فكر مجموعة بلدان او القارة كلها وتياراتها العاطفية وظواهرها الادبية والدراسات التي تعالج الاحداث الادبية الصرفة كالابحاث التي تدور حول الفنون الادبية والاجناس والاشكال والمواضيع ونذكر من الحقول التي تكونت حديثا ميادين ثلاثة هي : تاريخ الأدب العام ، فلسفة الأدب ، الأدب والفنون الجميلة :

حقول الادب العام المنسلخة عن الادب المقارن :

أولا - ظاهرة التأثر والتأثير كحدث عام :

يدرس الادب المقارن ظاهرة التأثر والتأثير على شكلها الثنائي وقد لا تتجاوز موازناته حدود المؤثر والمؤثر في كتلتين فقط وعندما كان يعالج احيانا التأثر والتأثير الحاصلين بين اكثر من قطبين كانت تقع هذه الدراسات على حدوده وقد اجتذبها اليوم

اليه حقل الادب العام الذي بيّن ان التبادل الأدبي على صعيد الأمم والشعوب والاقوام هو أمل البشرية جمعاء وأن آداب الامم تقيم الجسور والمعابر بين بعضها البعض وأنها تصطبغ بعبقرية العصر .

يستطيع المقارن كتابة تاريخ فرنسا الادبي مستعينا بحركة التأثر والتأثير فقط فهذه فرنسا تتأثر بايطاليا لتنهض من جمودها في القرن الخامس عشر والسادس عشر وبالروح الاغريقية واللاتينية وباسبانيا وايطاليا في القرن السابع عشر وبانكلترا في القرن الثامن عشر الخ . . . وهي بدورها تؤثر في جاراتها خاصة في القرن السابع عشر فتهيمن الروح الفرنسية على أوروبا . . . ويستطيع المقارن بحث تطور الادب العربي وعصور نهضاته مستعينا بحركة التأثر والتأثير فقط فكان من أسباب تطوره احتكاك العرب بعضهم ببعض أو احتكاكهم بغيرهم من الشعوب والحضارات والثقافات وقد ولّد الاحتكاك النهضة الجاهلية التي ظهرت تباشيرها قبل الاسلام والتي توطدت بعد ظهور القرآن الكريم وكانت تلك النهضة ثمرة اختلاط العرب بعضهم ببعض واحتكاكهم بسائر الامم المجاورة بالتجارة والفتوحات الرومانية والدعاوات السياسية الفارسية والرومية وقامت النهضة الثانية وهي الأموية والعباسية على احتكاك العرب واختلاطهم بالفرس والروم والهنود والاسبان وغيرهم وعلى امتزاج الثقافات والمذاهب ولا سيما بالترجمة التي نقلت إلى العرب فلسفة اليونان وعلومهم

وتاريخ الفرس وحضارتهم ونظمهم وحكمة الهنود وأساليبهم ، فكان من كل ذلك للعقول تثقيف وللمدارك توسيع وللتصور رقة ودقة واذا العقل والعلم أساسا كل شيء واذا عناصر الادب تكتسب عمقا وجدة وقد حدثت النهضة الثالثة والاخيرة باحتكاك الشرق بالغرب ولا سيما منذ أواخر القرن الثامن عشر. فكان من ثمارها أن اتسعت آفاق الفنون الادبية وراح الادب العربي يجاري سائر الآداب العالمية في كل ميدان من ميادينها ولا تزال تلك النهضة المباركة تنضج وتكتمل . واذ انتقلنا من الصعيد القومي (العربي أو الفرنسي) إلى صعيد الانسانية تتجلى حينئذ الحركات والتيارات وهي تعمل نشيطة زاخرة بالقوة والحياة فنجد ان تاريخ الادب العام يتألف من حركة تأثروتأثير واسعة هي من اختصاصاته .

لا يقلل من شأن الادب القومي مطلقا أنه استمدّ قوّته من الآداب التي سبقته في الزمن فالحضارة البشرية في تطورها المستمر متصلة الحلقات وتقوم على أساس استفادة الخلف من جهود السلف ولو كان لزاما على كل شعب أو جيل أن يبدأ البناء الحضاري من أساسه لما تقدمت الحضارة والعلوم والفنون والآداب فيعالج الادب العام على ضوء تلك السنة دور الروح الاغريقية اللاتينية وأثرها في آداب اوروبا عامة وفي آداب البلاد اللاتينية خاصة وهو يعالج أيضا مجمل ما حملته الحركة الرومانتيكية إلى القارة الاوروبية وإلى العالم باجمعه ويعالج أيضا

دور الآداب الشرقية وما دفعته من فريد وجديد إلى أوروبا التي ادخلته في أدبها وتمثلته وعاشت منه وعليه . . .

أضف إلى هذه التيارات العامة التي يحددها الادب العام مستمدا منهجيته من الادب المقارن تيارا مبهم المعالم يسمى « روح العصر » وهي روح تهيمن على عدة بلاد مجاورة ولا تجعل كتّاب بلد واحد يتشابهون فحسب بل تجعل أيضا كتّاب البلاد المتجاورة يتسمون بسمة الاسرة الواحدة (air de famille) وذلك أنه عدا التأثرات الفعلية يتشبع الكتاب بهواء الزمن (air du temps) ويسميه الالمان عبقرية العصر (Zeitgeist) الذي يفرض على الكتاب مناخا معينا فنرى كتاب القرن الثامن عشر في اوروبا وقد تشبعوا بحنان مفرط sensiblerie يتجلى في انكلترا (لدى Thomson و Richardson و Sterne) وفي فرنسا (لدى معظم ادبائها وخاصة Diderot و Rousseau) وفي المانيا لدى Lessing بعد ان تغلبت على روحه الناقدة كما سيظهر الحنان لدى الشاعر الرعاوي (Gessner) . . .

ونرى في الشرق النزعة « العلموية » التي نسميها « العباسية » تنتشر في قسم كبير من العالم المعروف الشرقي والافريقي فيتطور الادب وقد امتزجت المدنية الآرية بالمدنية السامية والحامية واختلطت العناصر الفارسية والعربية والتركية والسريانية والرومية والبربرية والزنجية وتمازجت بالتزاوج والتناسل

فاصطبغت عقلية شعوب الشرق الاوسط والادنى وجزء من افريقيا بصبغة جديدة تغلبت عليها « الفارسية » او « الكسروية » التي يعثر عليها الادب العام في الادب العربي والفارسي والهندي والاندلسي والبربري وما الادب الا مرآة هذه الشعوب في ميولها وعقليتها وعيشها وترفها وثقافتها وعلمويتها .

لا شك في أن التأثيرات الفردية والفروق القومية عملت عملها في حركة الحنان المفرط الاوروبية وفي العلموية الشرقية ولكن روح العصر هي المسؤولة عن طغيان تيار عام تبلور في حركات واسعة ظهرت وسميناها الحنان المفرط والعلموية العباسية او الكسروية ولا تزال تظهر في حركات شاملة اصطلحنا على تسميتها الكلاسيكية والتنوير والرومانتيكية والواقعية والرمزية والسوريالية . . .

ثانيا ــ الفنون الادبية والاجناس والاشكال والمواضيع كحدث ادبي صرف

الفنون الادبية هي ظواهر فنية لها ميزات ونواميس خاصة فهي بمثابة رتب لتصنيف آثار العقل البشري وهي تنضوي تحت لواء زمرتين : الفنون الادبية الشعرية (الفن القصصي والغنائي والتمثيلي والتعليمي) والفنون الادبية النثرية (التاريخ والخطابة والقصة والفن التعليمي والرسائل الخ . . .) وتتوزع على هاتين الزمرتين الرئيسيتين الاجناس الادبية (الرثاء ، المدح ،

الهجاء ، الغزل ، الاراجيز ، الراعويات ، الموشحات ، المقامات ، الخطابة ، القصة . . . في الادب العربي مثلا) وقد رأينا سابقا ان Brunetière هو الذي ادخل الاجناس في نظام متكامل يخضع لقانون النشوء والارتقاء فجاء الادب العام وتعلق بتلك النظريات وسعى في تعميمها ويقتضي تطبيق هذه النظريات عدم الاكتفاء بعدد صغير من الآداب بل يجب تناول عدد كبير منها والتحري فيها عن تطور جنس معين فلا تكتب مثلا دراسة القصة التاريخية في العالم اعتمادا على تأثير Walter Scott في انكلترا وفي فرنسا بل تكتب على شكل تاريخ متسلسل تتألف حلقاته من مراحل انتقال هذا الجنس إلى كافة انحاء اوروبا او إلى العالم بأسره .

ان الادب العام يعنى خاصة بدراسة ما هو جوهري في الانتاج الادبي او ما يسمى مضمون الادب وقد يعنى بدراسة الشكل وبالقوالب العامة فمن مواضيع اهتمامه وسائل العرض الفنية الترسل في الحضارة الشرقية أو في الحضارة العالمية وكيف أن هذا الفن أصبح صناعة محضة تهتم أحيانا بالمبنى أكثر من ان تهتم بالمعنى وخاصة في صور البدء والختام وتعديد التحميدات لله في الرسائل السلطانية الاسلامية واستعمال الالقاب في الرسائل الملكية الغربية .

ومن اهتمامه بالمضمون نشأت مشكلات احتدم الخلاف حولها بين علماء الادب المقارن وعلماء الادب العام منها مشكلة

المواضيع (thèmes) وقد رأت فئة أن المواضيع ليست مادة بحث أدبي ورأت فئة ثانية أنها من اختصاصات الادب المقارن كما ان فئة ثالثة ادخلتها في مواضيع اختصاص الادب العام وقد نجد شيئا من هذه المشادات في مؤلف :

R. Trousson. **un problème de littérature comparée : les études de thèmes, essai de méthodologie,** Paris.

أما نحن فنقول : ان هذا الحقل مباح لدارسي الادب المقارن ودارسي الادب العام شريطة ان نتعرف على نوعية الدراسة ومداها واتساعها فالقبلة في الادبين الفرنسي والانكليزي هي من مواضيع الادب المقارن أما القبلة في الآداب الاوروبية او العالمية فهي من مواضيع الادب العام وقد أثار (Trousson) مشكلة الابطال والنماذج البشرية وصنفها مع المواضيع وهنا ايضا نقول: ان موضوع برومتاوس وانتقاله إلى الادب الفرنسي هو من مواضيع الادب المقارن أما موضوع هؤلاء الجبابرة الذين تحدوا الآلهة وسرقوا النار حبا بالبشر أمثال برومتاوس اليوناني و Loki الجرماني و Agramanyus الايراني فقد يكون من مواضيع الادب العام .

وخلاصة القول : كلما تجاوزنا العلاقات الثنائية وكلما انتقلنا من الخاص إلى العام عبرنا حدود الادب القومي والادب المقارن ودخلنا في حقل الادب العام .

ميدان اختصاص الادب العام منذ نشأته :

اولا — حقل تاريخ الادب العام :

يهتم تاريخ الادب العام بآداب الامم وروائعها وبتصنيفها تصنيفا تاريخيا وبنقد الانتاج الادبي العالمي وبتحليل احداثه البارزة .

لم يعرف الاقدمون تاريخ الادب العام ولكنهم كانوا يجمعون مع تراجم الشعراء والكتّاب بعض الشواهد او بعض أقوال المؤلفين ويبينون محاسنها ومساوئها ولم تكن مجامعهم تؤلف صورة عامة للادب القومي في عصر واحد او اكثر ولم يكن التعليل فيها مطردا فكان عملهم ينقصه الترتيب والتصنيف والتعليل .

ظهرت في اوروبا حركة تسجيل آداب الامم في عصر قريب منّا وعرفت مجموعات الادب بالانتولوجيا (Anthologie) جمع العرب على هذين النمطين أدبهم القومي في كتب نذكر منها : **طبقات الشعراء** لمحمد بن سلاّم الجمحي (٨٤٥). **الشعر والشعراء** لابن قتيبة (٨٨٩) . **يتيمة الدهر** في شعراء العصر لأبي منصور الثعالبي (١٠٣٧) **الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة** لابن بسّام الاندلسي (١٠٣٧). **دمية القصر** لابي حسن الباخرزي(١٠٧٤). **ريحانة الألباء** لشهاب الدين الخفاجي (١٦٥٨) . . . وكتب الحماسة . . .) .

ومن المعلوم أن التاريخ الادبي او تاريخ الادب بمعناه الحديث عرفه الايطاليون والفرنسيون ثم انتشرت طرقه في كل انحاء العالم وقد تبناها تاريخ الادب العام وادخل عليها بعض التعديلات فتاريخ الادب العام هو وصف آداب الامم في مختلف عصورها وترتيبها وتعليلها وبيان اطوارها مع ما اعتراها من قوة وضعف ورقي وانحطاط وربط احداثها بعضها ببعض اللاحق بالسابق والحاضر بالماضي واظهار التيارات العامة التي تداخلت وتفاعلت في انتاج مختلف الامم والشعوب وقد ظهرت الان تواريخ الادب العام وكثرت في الاسواق نذكر منها مؤلفا وضع باللغة العربية : أحمد أمين وزكي نجيب محمود ، قصة الادب في العالم القاهرة ، ١٩٤٣ — ١٩٤٨ . أنظر أيضا كشف المؤلفات الأجنبية في الجدول البيليوغرافي .

اما مرحلة تحليل الاداب العالمية ونقد الادب العام فهي مرحلة تتأخر عن سابقتيها اذ تقوم بدراسة الاثار الادبية العالمية في جوهرها وعناصرها وميزاتها وبتحليل الدراسات الادبية العامة التي تصدت لها .

ثانيا — فلسفة الادب العام :

ان فلسفة ظاهرة ادبية واحدة في أدب قومي معين من المسائل الصعبة بحد ذاتها وقد يكون من المحال دراسة ظواهر الادب العام ولا يستطيع الباحث المبتدىء ان يقوم بأعمال كهذه التي

تأتي نتيجة لنضوج في التفكير ودراية في النقد والادب وقد طبق البعض فيها مبادىء علم الاجتماع وبحثوا في ظاهرة الادب وفي تأثرها بالعوامل الاجتماعية وفي تطورها بتطور المجتمعات من حالة قبلية إلى مدنية ومن مجتمع اقطاعي طبقي إلى مجتمع بورجوازي . . . قد طبق فيها البعض الآخر الفلسفة وطرحوا مشكلة العلاقة القائمة بين الادب العام والفكر والفلسفة وعالجوا مواضيع ماهية الادب والرمزية والوجودية والاشتراكية والالتزام ولم يتقفوا أثرها في أدب واحد فحسب بل تابعوه في كل اوروبا او في كل المعمورة . وقد طبق فيها بعض دارسي الادب العام مبادىء العلوم الحديثة وخاصة قانون Mendeleieff . ومن المعروف ان تصنيف العناصر الفيزيائية والكيماوية حسب كتلتها الذرية أتاحت للعالم Mendeleieff فرصة العثور على بعض المواد غير المركبة التي جهلها العلم التقليدي والتي اعترف العلم الحديث بوجودها وقد استطاع علماء الادب تطبيق هذا القانون على علمهم وعثروا على ظاهرة ادبية صرفة غير مركبة لم يتوصل اليها علماء الادب ومؤرخوه فقد عمت انحاء جزء كبير من اوروبا في نهاية القرن السادس عشر وفي مطلع القرن السابع عشر ظاهرة معينة شكّ البعض في وجودها لسيطرة النزعة الكلاسيكية آنئذ ولكن صفاء النزعة التي تدعى (Baroque) جاء بالدليل القاطع على توافرها في الادب الاسباني لدى (Calderon) وفي الشعر الالماني (لدى Martin Opitz) ثم لدى (Andreas Gryphius) وفي الادب

الانكليزي لدى (Shakespeare) وحـتى في الادب الفرنسي لدى (Corneille مثلا) فقد تسنى لتاريخ الادب العام تحديد تلك النزعة التي لا تشوبها شائبة واحلالها مكانها بجانب النزعة الكلاسيكية واعتبارها كحركة خالصة سيطرت مع الحركة الكلاسيكية على فرنسا وعلى جزء كبير من اوروبا .

ثالثا – الادب العام والفنون الجميلة :

الادب الجميل القومي والعام فن يسعى كسائر الفنون في تمثيل الاشياء المرئية والمفاهيم المجردة بشكل رائع واخاذ ، فكما ان العلوم تطلب الحقيقة معتمدة العقل التفكيري وكما ان الصناعات تطلب النافع معتمدة العقل العملي كذلك الفن ومنه الادب الجميل يلتمس الجمال معتمدا جميع القوى البشرية فان الجمال الفني يسيطر على العقل والشعور والمخيلة معا ويخاطب الانسان في كليته .

تتوزع الفنون الجميلة على زمرتين ، زمرة الفنون المكانية او التصويرية اي الهندسة والنقش والرسم وزمرة الفنون الزمنية او الايقاعية اي الشعر والموسيقى والرقص ولكل فن طريقته في التعبير عن الجمال وأما الهندسة فطريقتها التوازن وتناسق الكتل وأما النقش فطريقته الخطوط والظلال وأما الرسم فطريقته الالوان والايهام وأما الشعر (ومنه الادب الجميل) فطريقته

الخيال والوزن والقافية والجرس والموسيقى وأما الرقص فطريقته النسق والايقاع وأما الموسيقى فطريقتها الصوت والالات واللحن والنغم وتخضع الفنون إلى قانون تجانس الاعضاء رغم تباينها اذ تشترك في خاصية معينة تسمى الاسلوب وهو طابع تتسم به الفنون عندما تتوفر فيها شروط الزمن والبيئة والحضارة .

فالفنون التي هي من خلق الانسان وابداعه لها أوجه تشابه في مجتمع معين ولذا يجب عليها أن تحمل سمة مختلف نشاطات العصر أي نشاطات الدين والاخلاق والسياسة والنظم الاجتماعية والتربية والثقافة وقد نادى بهذا المبدأ هيكل (Hegel) وشاطره الرأي Herder واستخلص منه نتائج تطبيقية Guillaume Schlegel الذي بيّن في دروسه التي القاها في الادب التمثيلي (١٨٠٩) أن التراجيديا الكلاسيكية والحديقة الفرنسية تحملان السمة عينها فهما تخضعان إلى نظام صارم لا يدع مجالا للحرية ولعدم الانتظام (أقام بعدها زعماء المدرسة الرومانتيكية الدليل القاطع على أن حركتهم تتمثل في الحديقة الانكليزية) وهكذا نستطيع ان ندرس الفنون الجميلة لعصر كوحدة متماسكة الاجزاء انطلاقا من اسلوبها وقد لا تصلنا من الماضي السحيق الا بقايا (vestiges) حضارة معينة فهل نستطيع أن نعرف من الاصبع جمال اليد والذراع وان نرى من خلال بيت واحد بهاء القصيدة التي اندثرت ؟

هناك قرابة بين مختلف ظواهر الحس والشعور والذوق

والفكر والعقل تبدو لنا واضحة في سينية البحتري التي حوت الشعر والموسيقى وفي مقطوعتي BAUDELAIRE و RIMBAUD LE SONNET DES VOYELLES ET LE SONNET DES CORRESPONDANCES) حيث يبين الشاعران الفرنسيان ان الاحساسات تتجانس وتتطابق في مختلف الفنون فالنشوة واحدة في اللون والايقاع وتناسق الكتل واللحن والنغم وتسمى هـذه الظـاهرة السيكولوجية السينستيزيا (synesthésie) من نتائج هـذه الظاهرة توحيد اسماء المدارس والتيارات الادبية والفنية وقد تحمل المدرسة اسم نزعة ادبية او اسم تيار فني (لا مجال هنا لذكر عشرات المدارس التي نشأت بتأثير فن معين او حركة ادبية معينة ثم ارتقت وترعرعت فشاع اسمها واطلق على فنون عصر معين بكاملها) .

يؤلف الفنانون والادباء (وكل اديب هو فنان) أسرة واحدة تتعاون لخدمة كافة انواع الفنون الجميلة ويظهر تعاونهم بشكل واضح وجلي من ظاهرة السينستيزيا ومن وحدة الآمال والاهداف.

ظهر في بعض الاحيان عباقرة موهوبون حولوا طاقاتهم الانتاجية إلى أدب جميل او فن رفيع نذكر منهم جان جاك روسو الذي يعد من ائمة الادب والموسيقى وفكتور هوغو الذي رسم في الادب وعبّر في الرسم عن نشوة واحدة لم تفارقه طوال حياته وجبران خليل جبران ومحاولاته الناجحة في التصوير

والنقش (وقد تتلمذ مدة على يد Rodin) ووصف Diderot و Baudelaire لمعاصريهم اللوحات الزيتية الشهيرة وكانت الكلمة (le verbe) واسطة لتسجيل نشوة النظر في جوهر الحرف .

لعبت الصداقات دورا هاما في توثيق اواصر الالفة بين الفنانين والأدباء وكان Manet أليف Baudelaire و Zola وكافح جنبا إلى جنب الادباء والفنانون في معركة Hernani وخاض الرسامون والكتّاب معمعة التأثرية والسوريالية واشتركوا جميعا في عقد الندوات واللقاءات (ندوة فكتور هوغو المعروفة بـ Le Cénacle وفي اصدار المجلات (دور مجلة L'Artiste مثلا) وهم ينشدون وحدة الآمال والاهداف .

ومما لا شك فيه ان الادب العام مدعو إلى دراسة العلاقات والوشائج التي تربط الادب بمختلف الفنون الجميلة وهذا برنامج واسع صعب التحقيق حتى في الادب القومي الواحد وهو يتطلب من الباحث عدا المعلومات اللغوية والادبية معلومات اضافية شبه موسوعية في الثقافة والفنون الجميلة والحضارات .

كيف يتجلى الموضوع الواحد في الادب والرسم والنقش ؟

ما هي طبيعة الجمال وكيف يتحقق في الفنون الجميلة والأدب؟

كيف نقيم العلاقات بين الادب كطرف أول وبين الفنون الجميلة كطرف ثان ؟

قد استطاع حتّى الآن بعض مؤرخي الفن الذين حصّلوا ثقافة أدبية واسعة أن يقوموا بهذه الاعمال وقد ظهر عدد كبير من كتب الموازنات بين الآداب والفنون الجميلة اكثرها من وضع مؤرخي الفن ونرجو ان تحدث مشاركة بينهم وبين مؤرخي الأدب ستعود بالخير العميم على تواريخ الآداب والفنون معاً .

●

النصوص

منهجية تحليل نصوص الادب المقارن والادب العام

ان دراسة النصوص الادبية وشرحها وتحليلها والتعليق عليها التي كانت من برامج الصفوف الثانوية اضحت اليوم من صميم التعليم الجامعي واحتلت مكانة مرموقة حتى انها اجتاحت الحيّز الحيوي الذي كان مخصصا لتاريخ الادب .

ان القواعد المتبعة في تحليل نصوص الادب العربي تصلح جملة في شرح نصوص الادب المقارن والادب العام ولكنها تختلف في بعض تفاصيلها ولذا يجب ادخال بعض التعديلات والاضافات عليها نذكر منها الطريقة المقارنة :

تحدد الطريقة المقارنة المعايير والمقاييس التي نعتمدها عندما نحاول تحديد المميزات التي تفصل المتماثل عن المتخالف والشبيه عن المغاير والمتوافق عن المتناقض ونعتمد لمقارنة نصيّن أدبيين مقاييس تظهر العلاقة القائمة بينهما من تماثل وتخالف ودرجتهما وهكذا تتدخل هذه المقاييس في كل الدراسات المقارنة سواء اذا وازنا بين نموذجين اسطوريين أو بشريين أو قارنا بين قصيدتين أو مقطوعتين شعريتين .

قد اعتبرت المقارنة كناموس عام يحدد قواعد منطقية تفضي إلى نتائج ايجابية وكطريقة مثلى تطبق في الادب المقارن والادب العام وقد ميزت من الناحية الكمية بين نوعين من النصوص ، النصوص الجمالية القصيرة التي تعود إلى حقل الادب المقارن والنصوص الاعلامية الطويلة التي تعود غالبا إلى الادب العام .

اولا – النصوص الجمالية القصيرة :

آ) تحليل النص شفهيا :

قد يكتفي الذي يفتش عن عملية التأثر والتأثير بتثبيت النصين الواحد بجانب الآخر وعلى شكل عامودين ولا يكون هذا الترتيب المادي فعالا الا في حالات وجود تأثر أو تأثير مباشر او انتحال فاضح . ففي هذه الحالة يقع النصان على مستوى واحد فأولهما هو المعير والثاني هو المستعير وبما ان الفروق تكون ظاهرة وجلية وملموسة فمن الافضل شرح النص الاول واستخلاص ميزاته قبل الانتقال إلى مقارنته بالثاني والتعرف على مدى ابتعاد هذا عن الاول ولئن كان النص الاول يشبه جهاز البث والنص الثاني جهاز التلقي فهناك هامش لعملية الخلق والابداع والتحوير يجب أن يثيرها المحلل وأن يصدر بحقها تقديرات واحكاما قد تؤدي إلى استخلاص نوعية الطبيعة الادبية الاصيلة لكل من صاحبي النصين . ومن السهل دراسة نصوص من التمثيلية الهزلية (Amphitryon) لواضعها الاول (Plaute) ومقارنتها

بمسرحية موليير التي تحمل الاسم عينه إذ تقيّد موليير فيها بمبدأ المحاكاة وذلك أسوة بأدباء العصر الكلاسيكي ولكن من الصعب تحليل نص Plaute ومقارنته بنص Giraudoux الذي بيّن أن تمثيليته Amphitryon تحمل رقم ٣٨ أي أنه يعالجها بعد هذا العدد الكبير من الادباء الذين حاكوها او اقتبسوها او انحرفوا عن أصلها وقد اضفى Giraudoux لونا خاصا على تلك المسرحية القديمة وألبسها حلّة حديثة تلائم روح عصره وهذا ما فعله ايضا توفيق الحكيم في مسرحيته الملك أوديب (١) .

تصلح نصوص هذه المسرحيات لدراسات مقارنة وقد

---

(١) تردد العرب طويلا في قبول الفن المسرحي ورفضوا هذا الجنس الأدبي ومنعوه من الدخول الى ديارهم وكانوا يسمعون بأمره من أفواه النظارة دون ان يلتفتوا اليه او يحفلوا به ويرى توفيق الحكيم ان الأدب العربي كغيره من الآداب العريقة لا يقبل العبث بطابعه الخاص وهذا ما جعل العرب يقفون هذا الموقف الحذر من المسرح ويبتعدون عن اقتباس المسرحيات او ترجمتها اذ اعتبروا ان شعر البداوة هو مثلهم الأعلى وبما أنه يخلو من فن المسرح فهو بغنى عنه فجاء توفيق الحكيم واضفى على مسرحيته الملك أوديب لوناً خاصاً يلائم الذوق العربي والاسلامي . واتبع طريقة خاصة في محاكاة سوفكليس: لم يحاول تعديل الاصل او تبديله في ظاهر مبناه الا بالقدر الذي تقتضيه قوالب اللغة العربية ولكنه توفر على تحويل المسائل القديمة الى اغراض حديثة ليجعلها اقرب الى الانسانية وأكثر شمولا وجرد الملك أوديب من المعتقدات الخرافية التي تأباها العقلية العربية الاسلامية وصاغ مسرحيته بشكل يلائم اذواقنا وثقافتنا وصبغها بلون التفكير العربي والاسلامي وعالج موضوع الاسطورة الاغريقية القديمة بطريقة خاصة ومستقلة ومبتكرة .

تتدرج بالصعوبة كلما كان التحوير هاما كما ان الترجمات المقارنة هي من التمارين الناجعة والمفيدة في عملية تكوين ملكات فكر المقارن وعقله ومنطقه .

قد نساق إلى اعتبار الترجمة كجهاز تلق والاصل كجهاز بث فتكون غاية الترجمة حينئذ ابراز مشكلة تقيد المترجم بالامانة او عدم تقيده بها . وبما ان الترجمة تتوخى الامانة والدقة فمن الختل معالجة الاصل اولا ثم الترجمة لئلا نقع في التكرار الممل وعلينا ان نرى الترجمة وكأنها انعكاس تقريبي للنص الاصلي . ان موازنة البيت بالبيت والمقطع بالمقطع وحتى الكلمة بالكلمة تسلط الاضواء الكاشفة في الآن نفسه على النص الاصلي وعلى ترجمته وتؤثر في النص المترجم على صور قد أداها الناقل دون ان يوفق فيها فذلك ينجم عن صعوبة الترجمة التي تعجز عن أداء الصور كما أنها تعجز عن أداء الجرس والموسيقى ومن هنا تنشأ شبه استحالة ترجمة الشعر وقال الجاحظ : « الشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل . ومتى حول ، تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موقع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ، أحسن واوقع من المنثور ، الذي حول عن موزون الشعر . . . ولو حولت حكمة العرب ، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن . مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم ، وفطنهم وحكمهم . . . ان

الترجمان لا يؤدي ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده . ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجري . وكيف يقدر على ادائها ، وتسليم معانيها ، والاخبار منها على حقها وصدقها ، الا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصريف ألفاظها وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه » . **انظر** « الجاحظ : **مقدمة كتاب الحيوان** » وهكذا نرى أن الجاحظ عندما نظر إلى الترجمة تمعن في ناحيتها الجمالية وفي فن بيانها فتبين له استحالتها فأنكرها .

لكل لغة عبقرية خاصة بها ولا نتذوق الادب الجميل عامة والشعر خاصة الا بقراءة نصوصهما في لغتهما الاصلية وعلى هذا فانه من الافضل العودة إلى الاصل بدلا من اللجوء إلى الترجمة وإذا لم يكن هناك من مفر الا الاعتماد على الروائع الادبية المترجمة فليكن ذلك بواسطة ترجمات تصلح لاقامة الموازنة بينها وبين الاصل كشعر (Tagore) الذي قام بنقله إلى الفرنسية (André Gide) أو كترجمة بحيرة لامارتين Lamartine = **Le Lac** التي قام بها نيقولا فياض ويتبين لنا من هاتين الحالتين ان الترجمة ليست عملية ارتجال ورصف كلمات معجمية صحيحة والتقيد ببنى لغة معينة فحسب بل هي ايضا ادراك عبقرية اللغة المنقول اليها وبالتالي هي عملية خلق وابداع لان المترجم الحق يسبر اغوار اللغة التي ينقل اليها ويسيطر عليها ويرتفع إلى مستواها .

وقد نعالج روائع نقلتها إلى لغاتها شعوب الارض قاطبة في مختلف عصورها وقد ترسم لنا تلك الترجمات مختلف مراحل تطور الذوق الادبي وتبين لنا صعوبة أقلمة العادات والتقاليد ونقلها من لغة إلى لغة وهذا ما يسميه الفرنسيون (Les Belles Infidèles) وكلما كان الفاصل الزمني كبيرا ما بين النص الاصلي والترجمة كثرت « الخيانات الجميلة » .

وقد تفيد الترجمة المقارن وتفهمه ما أغلق عليه من مغزى بعض المقطوعات الشعرية التي يحاول أن ينفذ إلى لبابها وكم من فرنسي لجأ إلى مقطوعات شعر (Mallarmé) مترجمة ليفك ألغاز ما أغلق عليه من النص الفرنسي وليفقه معانيه .

وقد يقوم أديب كبير بترجمة روائع غيره وتكون ترجمته من قبيل التقليد والمحاكاة والتصرف فيصبح المترجم ندا للكاتب وشريكا له (حالة فيتزجرالد) وقد قال في هذا النوع من الترجمة الدكتور كمال يوسف الحاج ما يلي :

« ان الترجمة الحلوة هي التي تحصل بتصرف ، فعلها الاساسي لا يقف عند حد نقل كلمة بكلمة ، انها نقل جو بجو. أو مناخ بمناخ . أو روح بروح . نقل عبقرية بعبقرية . من هنا كونها عملاً قلميا يتطلب الخلق. الترجمة لا تكون قيدا . هي فعل حر . هي اشتباك قوتين ، صدرا إلى صدر ، وكتفا إلى كتف . مثلها مثل خصمين يتسايفان — يتجابهان — المترجم

كاتب عملاق. وهو البادىء بالتحدي. فعلى المترجم أن يكون عملاقا ليواجه التحدي بتحد مماثل . لقد سيق إلى العملاقية ، وهو لا يستطيع أن يتعملق اذا كانت الترجمة قيدا . لهذا هي خلق ثان . انظر : في فلسفة اللغة صفحة ٢٠٠ » .

لم نعالج حتى الان الا قضية موقع النصوص على خط الزمن فالاول سبق إلى الوجود النص الثاني والاول كان اصلا والثاني اقتباسا او ترجمة والاول كان المعير والثاني المستعير والاول قام بدور البث والثاني تقبل وتلقى ما صدر اليه عن الاول وقد نجد الآن حالة ثانية لا يقع فيها النصان على مستوى واحد . انهما يشتركان في عناصرهما ولهما الاهمية عينها فعوضا من تحليل النص الثاني واخضاعه للاول علينا أن نعلق على النصين وكأنهما يتساويان منزلة ومكانة وأهمية ويصح تطبيق قانون المساواة عليهما لأنهما يعودان إلى معيار يقع على بعد واحد من كل منهما . يجب في هذه الحال أن نتكلم عن القضية المشتركة التي يثيرها النصان وعن قيمتها وأصالتها وكيفية طرحها وتماثلها في الشكل أو العاطفة او الموضوع او المناخ الخ . . . ثم ان ننتقل إلى شرح كل نص شرحا مفصلا مع الوقوف على الملامح المشتركة التي ستستمد منها المقارنة خواصها وهذا التحليل الذي يتوخى الكمال والتمام يلتفت إلى القضايا التفصيلية التي تتناول المعنى والمبنى ، التعبير والمضمون فلا يجوز أن نعزل المبنى عن المعنى ولذا ان موازنة جمالية كهذه ستؤدي إلى شرح الصورة

الجميلة المبتكرة او التعبير اللطيف الفريد وإلى تذوق النصين مع ما فيهما من نكهة مشتركة ومن لون متشابه مع ابراز النواحي الفريدة التي اختص بها كل من النصين .

ان شرح نصين جماليين قصيرين يؤديان إلى شحذ روح المقارن الناقدة والواعية وليس من الضروري ان يختم الباحث كلا من نصيه بملاحظات خاصة فالاحسن أن يفضي إلى نتيجة عامة يجمع فيها الملاحظات التفصيلية التي أبداها ويصنفها ويوازن بين الاختلافات والتشابهات التي عثر عليها في النصين ويلفظ حكما نهائيا يرجح فيه اما كفة التشابه واما كفةالاختلاف

ب) تحليل النص تحريريا أو كتابيا

لا تصلح مواصفات الطريقة السابقة دوما في التحليل المقارن الكتابي او التحريري كما أن القواعد المعمول بها في تحليل الادب القومي تظهر عجزها الفاضح في هذا الحقل اذ هي تسعى في التركيز على أهم النقاط التي وردت في نص الادب القومي وتنتقل إلى بحثها وتمحيصها . فالتحليل المقارن يهمل مثلا قضايا هامة جدا لا يشترك فيها النصان ويتعلق ببعض النقاط البارزة التي تكون من مقومات الموازنة ومن أهم عناصرها وعلينا أن نقوم بعملية انشائية نجمع فيها تلك العناصر المشتركة تحت عناوين بارزة نكتشفها من استعراض ما ورد من مواضيع وأغراض وأفكار وأطر وعقد وشخصيات وابطال ومناخ وتعابير وبديع

وجرس وموسيقى وأوزان وقواف وقد يؤدي ذلك الاستعراض إلى رسم الخطوط الرئيسية لموضوعنا الادبي التحليلي فالفرق بين التحليل الشفهي والتحريري هو أن الاول يعير اهتمامه للتفاصيل الدقيقة وللنواحي الثانوية بينما يعتمد التحليل الكتابي على الانتقاء والاصطفاء والتركيب لتكون النتيجة استخلاص نظرية معينة او موضوعة Postulat يبررها التحليل في نهاية الامر .

ثانيا ـ النصوص الاعلامية الطويلة :

لا نراعي حين نقوم بتحليل هذا النوع من النصوص قيمتها الادبية والفنية لان الذي ينتقيها يعرضها علينا لمحتواها الفكري ولمضمونها الفلسفي والحضاري ويكون مصدر هذه النصوص الادب العام ويكون اكثرها منقولا من لغة إلى أخرى ومتداولا بين اكثر الامم والشعوب .

ان نصوصا كهذه هامة من ناحية المحتوى والمضمون لانها تكتب وتترجم بلغة البابلية العالمية التي تقرب العقليات وتصهر في بوتقتها الخصائص المميزة للغات مما يؤدي إلى شيوع مفردات وتعابير وصيغ هجينة تتعامل بها البشرية جمعاء . فلذا لا يتناول التحليل في هذه الحالة المشكلات التعبيرية والجمالية التي يطرحها شكل النصين بل يتناول فقط المشكلات الفكرية والمعنوية .

ان تحليل النصوص الطويلة يسهم في كتابة تاريخ المواضيع

والاجناس الادبية والابطال والنماذج البشرية وقد لجأ اليه البعض لتأليف لحمة بعض المصنفات التي وضعوها في الادب المقارن او في الادب العام وقد يجمع المحلل بعض النصوص ويعلق عليها ويدخلها كجزء لا يتجزأ في نظرية معينة يريد أن يبرهن عن صحتها وقد ساعد النقد الجديد (New criticism) في الولايات المتحدة الاميركية على انتشار هذه الطريقة وعلى رواجها فحاول الاميركي (Geoffrey H. Hartman) في مؤلفه الرؤية المباشرة (**The Unmediated Vision**) الذي نشره في عام ١٩٥٤ أن يضم في مجموعة واحدة عددا من الشعراء ينتمون إلى جنسيات مختلفة تركوا في شعرهم صورة عن العالم الخارجي يتلاشى فيها الفرق الذي يقوم بين الذي يرى والعالم الذي يُرى ويحتوي مصنفه على اربع قصائد ألفها الانكليزيان (Wordsworth و Hopkins) والنمسوي Rilke والفرنسي Valéry وقد حـــدد المحلل بواسطة تلك القصائد جوهر الشعر الحديث وعناصره وماهيته .

وقد استطاع الالماني Erich Auerbach في كتابه **Mimesis** ان يسوق في تحليل مقارن وعام مختلف مراحل الحركة الواقعية وقد قام المذكور في أول الامر بدراسات تقليدية تعتمد التوثيق والجزازات والشواهد القصيرة ثم طرد من المانيا اثر وصول هتلر إلى الحكم فغادرها دون ان يحمل معه عدته المقارنة فأقام في اسطنبول حيث كتب تاريخ الواقعية منطلقا من أوديسة

هوميروس لغاية احدى قصائد الشاعرة المعاصرة Virginia Woolf وقد اتخذ له اكثر من عشرين نصا أنارت طريقه وبالطبع بنى تحليله على خط التاريخ واستخلص من النص الاول أهم عناصر الواقعية ثم اكتنزت مادته حين انتقل إلى النص الثاني فالثالث وهكذا دواليك واهتم Auerbach بالعناصر الاساسية للواقعية دون الدخول في التفاصيل الدقيقة مع الاكتفاء في خاتمة كل فصل من فصول تحليله بتحديد أوجه الشبه والخلاف بين واقعية الاثر او الكاتب الذي يدرس والذي يليه واكتشف في كل مرة المرحلة التاريخية التي يمثلها النص وعلّق عليها باسهاب وبيّن قيمتها في ديناميكيّة حيّة واصبح القدوة الحسنة والمثل لكل من يبتكر طريقة عندما تحول ظروفه الخاصة دون القيام بعمل تخصص به ومنعته الاقدار عن أدائه . . .

ان الملاحظات التي ابديناها لا تحدد طريقة مثلى أو دستورا نهائيا لتحليل نصوص الادب المقارن والعام الشفهية والكتابية فلكل حالة قواعد خاصة وفريدة تتغير وتتحول أو ليس كل معلق ومحلل وشارح هو قبل كل شيء ناقد وقد يكون في حقل الأدب المقارن والعام ناقد أدبين واكثر ولذا عليه أن يتدبر أمره !

●

خاتمة

لا يمكن لشعب مهما بلغ من الرقي أن يكتفي بتراثه الخاص وأن يستغني عن التراث الانساني العام فاقتصارنا على تراثنا يجعلنا نحيا ونعيش في برج عاجي مترفعين عما يجري في عالم البشر بينما اطلاعنا على تراث غيرنا يقوي عرى صداقاتنا ويرسخ دعائم الاخوة والتفاهم الدولي ويفتح أمامنا نوافذ نطل منها على العالم بأجمعه فتتسع آفاق فكرنا ونرى حياة البشر على حقيقتها .

ان طابع الحضارة التي نعيشها الانساني والعالمي الكوزموبوليتي قد اقتضى ان يتم التبادل فالعلوم والمعارف هي كالهواء والنور ملك للجميع وهي لا تعرف وطنا تستقر فيه ولا اقليمية ضيقة تتقيد بها اذ تتخطى التخوم وتتجاوز الحدود التي رسمها الساسة والجغرافيون وتنتقل من ذهن إلى ذهن فالعلم انساني والمعرفة بشرية وهما لا يعبأان بالمذاهب والعقائد والاعراق والاجناس وانتقال التراث من بلد إلى بلد ومن شعب إلى شعب والتفاعل الحضاري يؤديان الى انفتاح وجداني وإلى انسانية الفكر واذا أردنا أن نعيش عصرنا الحاضر الذي يتسم بانفتاحه علينا أن نخرج من عزلتنا ومن فرديتنا .

ان الادب المقارن والعام هو النافذة التي تطل منها على آداب الشرق والغرب وهو المرآة الصادقة للتفاعل القائم بين الآداب العالمية على اختلاف انواعها فالشعوب كانت وما تزال تتبادل الروائع الادبية كما تتبادل السلع والخيرات المادية ولذا تنتقل الآثار الخالدة من جهة إلى جهة ومن شعب إلى شعب كما تنتقل السحب والرياح لا تصدها عوائق ولا تقف دونها عقبات .

لقد رأينا أن الأدب المقارن يهتم بدراسة العلاقات الثنائية التي تقوم بين أدبين احدهما قومي والاخر اجنبي ورأينا أن الادب العام يبحث في اختصاصات ناء عن حملها الادب المقارن ورأينا ان الادبين المقارن والعام يركزان على مشكلة العلاقات التي تكون اما تاريخية غير مشكوك بصحتها واما غامضة ومبهمة نستجليها من جو مشترك تشبعت منه آداب مختلفة واصطبغت بصبغة متشابهة ورأينا أن الانسانية وحدة متفاعلة تنقل من شعب إلى آخر مادة أدبية قد يعي قوم ضرورتها وقيمتها فيستوعبها ويتمثلها ويمزجها في عقليته الخاصة وقد يقدمها بدوره إلى الشعوب الاخرى فيضيف اللاحق إلى ما تركه السابق .

يستطيع طبعا كل بلد ، ضمن أطر الادب المقارن والادب العام ، الاهتمام بمشاكل خاصة به ويمكننا أن نبين الدور الذي لعبته المقامات في نشوء القصة والرواية الحديثة والقديمة ودور شعر الحماسة العربي في مفهوم الملحمات الشعرية الغربية ويمكننا

ان نسهب في الكلام عن احيائنا للفكر القديم وعن نقلنا اياه إلى الاندلس وإلى اوروبا ولكننا نعترف أيضا بأن التفاعل الحضاري يتم بين قطبين يتآكلان ويتفاعلان فنحن مدينون للغرب في تطور أدبنا الحديث وفي انتاجنا للشعر الحديث والرواية والمسرح . يهتم الادب المقارن والعام بدراسة هذه التيارات ويحلل ايضا نشوء الشعر البطولي والحكمي وظهوره عفويا في شتى ارجاء العالم كما يثبت الادب العام خاصة أثر شعوب معينة على مصير الانسانية جمعاء فيحلل عناصر الرواية الروسية ليلاحظ ان هذه العناصر فد انتشرت في العالم الغربي الذي تبناها ويعالج أثر الثورة الفرنسية وصداها في الآداب العالمية ودور الاحتلال العثماني او الاستعمار في كبت الشعور القومي ودور المقاومة في ظهور نماذج فنية معينة الخ . . . دراسة هذه التيارات والتفاعلات مفيدة قد تظهر اننا نقبل ان نسير نحـــو كلاسيكية عالميـــة ولكننا نأبى ان نفقـــد فرديتنا وأصالتنا وأن نتخلى عنهما لصالح أُمَـمِـيّة غامضةاو شعوبية بغيضة تنكر علينا أمجادنا وتجردنا من تراثنا فنحن نقبل ان نتعاون مع الجميع لنسير نحو انسانية تحترم قوميتنا وتجل ثراثنا وتصون المنضوين تحت لوائها من عبث التمييز العنصري او سيطرة القوي الذي يسيم كسفا الناشيء والمجـّد . وليكن لنا من دراسة الأدب المقارن والعام تجربة بشرية وخبرة انسانية وعظة وأمثولة تاريخية .

ونظرا لاهمية الادبين المقارن والعام يجب أن تمتد يد الاصلاح اليهما وأن تعالج مشكلاتهما الرئيسية وقد انتهينا الان من دراستهما ويحق لنا أن نتقدم ببعض الاقتراحات بخصوص تحسين طرق تدريسهما وتأمين العدة اللازمة لكل من يبحث فيهما :

تدريس الادب المقارن والعام :

تدرس مواد الادب المقارن والعام في عدد كبير من الجامعات يلقي غالبا المحاضرات فيها اختصاصي واحد يساعده معيدون يقومون بالتدريس ويؤمنون عملية الاشراف على ابحاث الطلاب ويرددون على مسامعهم بعض الاسئلة التقليدية وذلك لا يتيح للدارس والمدرس فرصة الانصراف إلى البحث والتنقيب المجدي . ان هذه الجامعات لا تفي العلم حقه ولذا يجب توخيا لتقدم الادب المقارن والعام انشاء معاهد يشرف عليها عشرات من الاساتذة الذين يتحلون بثقافة واسعة والذين يتقنون اللغات القديمة والحيّة .

طرق وحقول الادب المقارن والعام :

يتكون الادب من عناصر شكلية ومن عناصر معنوية منها الكلمات والتعابير والبيان والبديع والبلاغة والفصاحة والجرس والموسيقى والافكار والصور . . . لكل لغة طابع خاص وعبقرية أصيلة واللغات تتأثر ببعضها البعض وتتفاعل فدراسة هذا التفاعل هو نمط من الدراسات الالسنية ومن الادب المقارن والعام .

ولذا لا بدّ من أن يتجاوز اللغويون مرحلة دراسة الغريب والدخيل والاستعارات ليولوا شيئا من اهتمامهم لعلم المعاني والبلاغة والتعبير والعروض وعلم الصوت والنبرات والجرس والموسيقى وما التعليق على نشوء أنماط جديدة من القصائد الحديثة في الشعر الموزون المقفى أو المرسل ومن البحور غير المألوفة الا من اختصاصات اللغوي والمقارن .

اهتمت العلوم الحديثة بدراسة الصور والتصور وكم نود أن نرى علماء يهبون للبحث عن الصور التي تداعب خيال كل قوم والتي تستمد غالبا مادتها من الواقع . ان دراسة صور الحب الفاحش والصوفي والافلاطوني تبين دور البيئة والمناخ والحضارة والاحداث التاريخية التي عاشها أو يعيشها قوم فدراسة الصور طريقة للتعرف على ثوابت الخيال والفكر وهي ايضا من اختصاصات المقارن .

التخطيط المنهجي وتجديد عدة المقارن :

ان الاقتصاد والتغذية والصحة وغيرها من الامور المادية خضعت اليوم للبرمجة واخذ الناس يشعرون بضرورة تخطيط نشاطات الفكر والروح والابداع لئلا تهدر الامكانيات وتضيع الجهود سدى . ولذا يجب ان يتناول التخطيط المنهجي ، الامور التالية :

— تحديد اختصاصات كل من الادب المقارن والادب

العام لئلا يتشابك علمان ناشئان يسعى كل منهما في أن يكون في طليعة العلوم الموضوعية .

— وضع قاموس يرجع اليه المقارن ليجد فيه كافة المفردات العلمية المستعملة في دراسات الادب المقارن والعام . نعرف حق المعرفة ان المفردات والمصطلحات تخفي في طياتها مفاهيم تختلف حسب اللغات والبيئات وان كل كلمة تتضمن عددا كبيرا من المعاني فقاموس الادب المقارن والعام سيزيل اللبس ويؤمن عملية التواصل (communication) للباحثين مهما اختلفت لغاتهم وتباينت بيئاتهم .

— تجهيز معاهد الادب المقارن او مراكزه بمكتبات قيّمة يجد فيها المقارن الموسوعات والقواميس التي يحتاج اليها والابحاث والمقالات والمؤلفات التي كتبت عن علمه والمجلات الدورية الاختصاصية والفهارس البيبليوغرافية ولن نغالي في مطالبنا وقد يتعذر الان وضع فهارس تحليلية او نقدية ولذا نرغب في أن تؤمن لنا فهارس وصفية ترشد البحاثة وتجنبه الانصراف إلى مواضيع قد اشبعها تحليلا وتمحيصا زميل آخر له .

— تضافر جهود المقارنين لمعالجة المواضيع العامة كمصادر ومراجع الأدب المقارن والعام والعلاقات الادبية والتيارات الفكرية والنماذج البشرية وتعاون المقارنين في سبيل عقـــد المؤتمرات والندوات وانشاء هيئات تعمل على الصعيدين القومي

والعالمي للقضاء على العنعنات وروح المدارس والتعصب والاجماع على التزام خط عام (فكم من فرنسي يلتزم بخط المدرسة الاميركية وكم من اميركي هو في تقنيته وفي طرق بحثه من انصار المدرسة الفرنسية ! . . .) .

وفي الختام نكرر دعوة قديمة كنا قد اطلقناها في عام ١٩٦٦ : ان باب الاجتهاد مفتوح لكل من يرغب في الاهتمام بهذا النوع من الدراسات الحديثة النشأة ولا يسعنا الا أن ندعو بالتوفيق لكل من تدفعه رغبة صادقة في تحديدها وتعريف أصولها ومعالجة مشكلاتها .

بيروت في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١

ريمون طحّان

•

المراجع العربية

– قصة الأدب في العالم – احمد امين وزكي نجيب محمود – القاهرة ١٩٤٣ – ١٩٤٨

– اصول الادب المقارن – ريمون طحّان – مجلة الثقافة – دمشق عدد شباط ١٩٦٦ وعدد آذار ١٩٦٦ .

المراجع الفرنسية

— Encyclopédie de la Pléiade,
Histoire des littératures.
R. Queneau, Paris, 1955 - 1958.

— **Histoire générale des Littératures.**
P. Gioan Paris - 1961.

— **Les grandes dates des littératures étrangères.**
Weil et Chassard – Paris – 1969.

— **La littérature comparée,**
Paul Van Tieghem – Paris – 1946.

— **Comparaison n'est pas raison,**
Etiemble – Paris – 1963.

— **La littérature comparée.**
M. F. Guyard Paris – 1965.

— **La littérature comparée.**
Pichois et Rousseau Paris – 1967.

— **Littérature générale et littérature comparée.**
S. Jeune – Paris – 1968.

المراجع الإنكليزية

— **Essentials of European Literature.**
V.C. Hopper – N.Y. – 1953

— **A comparison of Literatures.**
R.P. Jameson, – London – 1935

— **Comparative Literature, Method and Perspective.**
Edited by N. Stallknecht and H. Frenz – Carbondale, Southern Illinois University Press – 1961.

الأدب المقارن والأدب العام

سلسلة الأدب المقارن

رقم العدد	العنوان	المؤلف
١	الأدب المقارن والأدب العام (نشر ١٩٧٢).	ريمون طحّان
٢	الأدب العربي : تأثيراته ، تأثراته.	
٣	رسالة الغفران والكوميديا الإلهية.	
٤	كتاب كليلة ودمنة وآداب الأمم والشعوب.	
٥	الأدب الغريب.	

– للمؤلف –

André Gide et l'Orient ;
Paris, Imprimerie Abécé, 1963.
Esthétique et Histoire de l'Art,
Damas Imprimerie de l'Université de Damas, 1966.

الألسنية – ١ – **الألسنية العربية** (مقدمة – الأصوات – المعجم – الصرف) – المكتبة الجامعية – دار الكتاب اللبناني بيروت – ١٩٧٢ .

– ٢ – **الألسنية العربية** (النحو – الجملة – الأسلوب – خاتمة) – المكتبة الجامعية – دار الكتاب اللبناني بيروت – ١٩٧٢ .

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون: ٢٦٥١٢٨